414

ض ا م ن

117225 مبارك

الموسوعة الصغيرة
٤٧

نظرية النظم

د. حاتم الضامن

المؤلف في سطور
د . حاتم صالح الضامن

- ولد في بغداد عام 1938
- حصل على البكالوريوس في اللغة العربية من كلية الاداب ببغداد عام 1961
- حصل على الماجستير في النحو من كلية الاداب ببغداد عام 1973
- حصل على الدكتوراه في اللغة من كلية الاداب ببغداد عام 1977
- يعمل حالياً مدرساً في الاعدادية المركزية للبنين ببغداد
- نشر اكثر من ثلاثين بحثاً في المجلات العراقية والعربية
- من مؤلفاته :

☐ 1 ـ تحقيق مشكل اعراب القرآن
☐ 2 ـ تحقيق كتاب الزاهر
☐ 3 ـ شعر نهشل بن حري
☐ 4 ـ شعر يزيد بن الطثرية .

الأخ الدكتور مازن المبارك مع التحية والتقدير
١٥/٩/٧٩

الموسوعة الصغيرة

٤٧

نظرية النظم تاريخ وتطور

د. حاتم صالح الضامن

منشورات وزارة الثقافة والاعلام

١ أيلول ١٩٧٩

٤١٤

المقـــدمة

النظم في اللغة هو التأليف ، وضم شيء الى شيء آخر . يقال : نظمت اللؤلؤ أي : جمعته في السلك ، والتنظيم مثله . ومنه : نظمت الشعر . والنظام بكسر النون : الخيط الذي ينظم به اللؤلؤ(١) .

ومن المجاز نظم الكلام ، وهذا نظم حسن ، وانتظم كلامه وأمره ، وليس لأمره نظام ، اذا لم تستقم طريقته(٢) .

ويقال : نظم القرآن ، أي : عبارته التي تشتمل عليها المصاحف صيغة ولغة ، ومن كل شيء ما تناسقت أجزاؤه على نسق واحد(٣) .

فالمعنى اللغوي المشترك اذن هو ضم الشيء الى الشيء وتنسيقه على نسق واحد كحبات اللؤلؤ

---

(١) اللسان والتاج (نظم) .
(٢) أساس البلاغة (نظم) .
(٣) المعجم الوسيط (نظم) .

المنتظمة في سلك . وهذا المعنى هو ما ذهب اليه عبدالقاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الاعجاز) ، فالنظم عنده هو تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض .

* ● *

ولا بد أن نشير ، قبل الحديث عن نظرية النظم ، الى أنها كانت أبرز وجوه الاعجاز عند العلماء ، فانّ الجدال الذي قام حول الاعجاز في القرن الرابع الهجري قد أعاد الحياة من جديد الى التفكير البلاغي بمقابلته بين بلاغة العبارة وبلاغة النظم ، وكان سبباً في ظهور طريقتين في البحث البلاغي : طريقة تتمثل في تفكيك النص لعزل الاساليب التي تعتبر وحدها حاملة للبلاغة ، وطريقة تعتمد وحدة النص والالتحام الموجود بين أجزائه ، ولا يتصور أصحابها بلاغة خارجة عن ذلك.

ومن الضروري أيضاً الاشارة الى ان البحث في نظرية النظم كان سبباً لوضع علم المعاني وطريقاً لعلم البيان ، وقد اتخذها عبدالقاهر أساساً لنظريته في الاعجاز والبلاغة والنقد كما سنرى .

الفصل الاول

فكرة ~~التنظيم~~ النظم قبل عبدالقاهر الجرجاني

لو استعرضنا فكرة النظم لرأينا بذورها فيما كتبه النحاة والبلاغيون ومؤلفو كتب اعجاز القرآن . وكذلك نجد من غير العرب من عني بهذه الفكرة ، فمثلاً نرى ارسطو يعقد فصلاً في كتابه « فن الشعر »(١) يتحدث فيه عن أقسام الكلمة والفروق بين أقسامها والمقاطع والحروف والأصوات والتي رآها ضرورية في البلاغة . ويتحدث أيضاً في كتابه (الخطابة)(٢) عن مراعاة الروابط بين الجمل والاسلوب وحذف أدوات الوصل والتكرار . ومعنى ذلك أن ارسطو اتخذ من هذه الموضوعات أساساً في دراسته للأساليب والتمييز بينها .

واشار بعض الباحثين الى انّ الهنود عنوا بنظرية النظم . وليس أمامنا ما يوضح فكرة النظم

---

(١) ص ٥٥ .

(٢) ص ١٨٥ .

عند الهنود أو بلاغتهم إلاّ ما ذكره الجاحظ عن الصحيفة الهندية وما جاء فيها من اصول تتصل بالاسلوب والخطيب وصفاته ، وما ذكره البيروني في تاريخ الهند ووصفه للمحاولات البلاغية التي كانت تصل بقضية الاعجاز في كتابهم الديني(٣) .

وقد وقفنا على اشارات كثيرة تخص فكرة النظم والتأليف فيها في الكتب العربية وفيما يلي ذكر لمن بحث أو ألّف فيها ، وهو أول احصاء شامل مرتباً ترتيباً زمنياً يشير الى بذور هذه الفكرة عند الادباء والنحاة والبلاغيين ومؤلفي كتب الاعجاز :

(١) ابن المقفع : (ت ١٤٢ هـ)

لعل أقدم اشارة عثرنا عليها في الكتب العربية هي عبارة ابن المقفع التي أشار فيها الى صياغة الكلام ، قال : « فاذا خرج الناس من أن يكون لهم عمل أصيل وأن يقولوا قولاً بديعاً ، فليعلم الواصفون المخبرون أن أحدهم ــ وإن أحسن وأبلغ ــ ليس زائداً على أن يكون كصاحب فصوص وجد ياقوتاً وزبرجداً ومرجاناً ، فنظمَه قلائدَ وسموطاً وأكاليل ، ووضع كلّ فصٍ موضعَه ، وجمع الى كل لون شِبهَه وما يزيده بذلك حسناً .

(٣) المدخل الى دراسة البلاغة العربية ٥٢ .

فسُمي بذلك صائغاً رقيقاً . وكصاغة الذهب والفضة : صنعوا منها ما يعجب الناس من الحَلْيِ والآنية . وكالنحل وجدت ثمراتٍ أخرجها الله طيبة ، وسلكت سُبُلاً جعلها الله ذُلُلاً ، فصار ذلك شِفاءً وطعاماً وشراباً منسوباً اليها ، مذكوراً به أمرها وصنعتها . فمن جرى على لسانه كلام يستحسنه أو يُستحسَنُ منه ، فلا يعجبَنّ اعجاب المخترع المبتدع ، فانّه إنما اجتناه كما وصفنا »(٤) .

وأخذ البلاغيون هذا الكلام وأداروه في كتاباتهم من غير أن يشيروا الى ابن المقفع(٥) ، قال الجاحظ : « فانما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير »(٦) .

(٢) سيبويه : (ت ١٨٠ هـ)

تحدث عن معنى النظم وائتلاف الكلام وما يؤدي الى صحته وفساده وحسنه وقبحه في مواضع متفرقة من كتابه . قال : « هذا باب الاستقامة من الكلام والاحالة : فمنه مستقيم حسن ، ومحال ،

(٤) الادب الصغير ٦ ــ ٨ .

(٥) عبدالقاهر الجرجاني بلاغته ونقده : ٥٣ .

(٦) الحيوان ١٣٢/٣ .

ومستقيم كذب ، ومستقيم قبيح ، وما هو محال كذب . فأمّا المستقيم الحسن فقولك : أتيتك أمسِ وسآتيك غداً . وأمّا المحال فأن تنقض أوّلَ كلامك بآخره فتقول : أتيتك غداً وسآتيك أمسِ . وأما المستقيم الكذب فقولك : حملت الجبل وشربت ماء البحر ونحوه . وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه ، نحو قولك : قد زيداً رأيت ، وكي زيداً يأتيك ، وأشباه هذا . وأمّا المحال الكذب فأن تقول : سوف أشرب ماء البحر أمسِ »(٧) .

فسيبويه يجعل مدار الكلام على تأليف العبارة وما فيها من حسن أو قبح ، ووضع الالفاظ في غير موضعها دليل على قبح النظم وفساده ، فاذا قلت : قد زيداً رأيت وكي زيداً يأتيك لكان الكلام قبيحاً والنظم فاسداً ، وإن لم نعرف أن ذلك الفساد في النظم مرجعه الى عدم جواز دخول (قد وكي) على الأسماء ، فانّ ذلك نحسه بأذواقنا ونستشعره بنفوسنا . وهل النظم عند عبدالقاهر إلاّ توخي معاني النحو ووضع الألفاظ في موضعها الصحيح(٨) .

(٧) الكتاب ٨/١ .

(٨) أثر النحاة في البحث البلاغي ١١٠ .

وكان اهتمام سيبويه بنظم الكلام وتنسيق العبارات واضحاً في مواضع كثيرة من كتابه فمنها : اهتمامه بحروف العطف وأثرها في صحة النظم وفساده ، وتقديم المسؤول عنه بعد اداة الاستفهام، واخبار النكرة عن النكرة . وهكذا فان سيبويه قد تحدث عن مفهوم النظم مراعياً فيه أحوال النحو ، فهو يرى أنّ لكل استعمال معناه ، وتغيير الاستعمال لابد أنْ ينشأ عنه تغيير المعنى ، وهو لا يبعد في ذلك عن معنى النظم وإن لم يسمه باسمه .

ومن هذا المنطلق ذهب الاستاذ علي النجدي ناصف الى أن هناك رحماً ماسة وصلة شديدة بين منهج سيبويه في كتابه وبين علماء البلاغة المتأخرين في علم المعاني(٩) .

(٣) بشر بن المعتمر : (ت ٢١٠ هـ)

في صحيفة بشر عبارات تفيد النظم ، قال : « فاذا وجدت اللفظة لم تقع موقعها ، ولم تصر الى قرارها ، والى حقها من أماكنها المقسومة لها ، والقافية لم تحل في مركزها وفي نصابها ، ولم تتصل بشكلها ، وكانت قلقة في مكانها نافرة من موضعها ، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن ، والنزول في غير أوطانها »(١٠) .

(٩) سيبويه امام النحاة ١٧٨ .

(١٠) البيان والتبيين ١٣/١ .

(٤) كلثوم بن عمرو العتابي : (ت نحو ٢٢٠ هـ)

يرى العتابي أن الألفاظ للمعاني بمثابة الأجساد للأرواح ، فينبغي أن توضع موضعها ، وإلا تغير المعنى وساء النظم . قال : « الألفاظ أجساد ، والمعاني أرواح ، وإنّما تراها بعيون القلوب ، فاذا قدّمت منها مؤخّراً ، أو أخّرت منها مقدّماً أفسدت الصورة وغيّرت المعنى ، كما لو حوّل رأسٌ الى موضع يد ، أو يدٌ الى موضع رِجْل ، لتحوّلت الخِلْقة ، وتغيّرت الحِلْية »(١١) .

(٥) الجاحظ : (ت ٢٥٥ هـ)

تحدث الجاحظ عن النظم ، قال : « أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج ، فتعلم بذلك انّه افرغ افراغا وسُبك سبكا واحدا ، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان »(١٢) .

وألف الجاحظ كتاباً لم يصل الينا أسماه (نظم القرآن) ، وقد أشار اليه في كتبه ، قال : « كما عبت كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه »(١٣) . وقال : « فكتبت لك

(١١) الصناعتين ١٦٧ .
(١٢) البيان والتبيين ٦٧/١ .
(١٣) الحيوان ٩/١ .

كتاباً أجهدت فيه نفسي ، وبلغت منه أقصى ما يمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن ، والرد على كل طعان .. فلما ظننت أني قد بلغت أقصى محبتك ، وأتيت على معنى صفتك ، أتاني كتابك تذكر أنك لم تُرد الاحتجاج لنظم القرآن وإنّما أردت الاحتجاج لخلق القرآن »(١٤) .

وقال أيضاً : « وفي كتابنا المنزل الذي يدل على انّه صدق ، نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد مع ما سوى ذلك من الدلائل التي جاء بها من جاء به »(١٥) .

فالجاحظ اذن يؤمن أنّ القرآن معجز بنظمه ، ولو ان كتابه (نظم القرآن) بين أيدينا لاستطعنا الكشف عن رأيه الواضح في هذه المسألة .

ولابد هنا أن نذكر قول الخياط المعتزلي في كتاب الجاحظ : « ولا يُعرف كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه وأنّه حجّة لمحمد (ص) على نبوته غير كتاب الجاحظ »(١٦) . وقال أيضاً : « فمن قرأ كتاب عمرو الجاحظ في الرد على المشبهة وكتابه في الاخبار وإثبات النبوة وكتابه في نظم

(١٤) حجج النبوة ١٤٨ .
(١٥) الحيوان ٩٠/٤ .
(١٦) الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد ١١١ .

القرآن ، علم أنّ له في الاسلام غناء عظيماً لم يكن الله عزّ وجلّ ليضيعه له »(١٧) .

وقال الباقلاني : « وقد صنّف الجاحظ في نظم القرآن كتاباً ، لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله ، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى »(١٨) .

(٦) ابن قتيبة : (ت ٢٧٦ هـ)

اهتم ابن قتيبة بالعلاقات النحوية بين الفاظ العبارة ، وأفرد باباً أسماه : (تأويل الحروف التي ادعى على القرآن بها الاستحالة وفساد النظم)(١٩) .

وقد شغل ابن قتيبة بالرد على الطاعنين والمخالفين ، وفكرة النظم عنده بلاغية على ما يظهر من كلامه في كتابه (تأويل مشكل القرآن) ومن الحاحه في بسط مذاهب البلاغة المختلفة دون أن يقف أمام التركيب ، وضم الكلام بعضه الى بعض على ما يقتضيه علم النحو(٢٠) .

---

(١٧) المصدر نفسه ٢٥ .

(١٨) اعجاز القرآن ٦ .

(١٩) تأويل مشكل القرآن ٢٩٩ .

(٢٠) فكرة النظم بين وجوه الاعجاز ٥٧ .

(٧) ابراهيم بن المدبر : (ت ٢٧٩ هـ)

نراه ينصح الكتاب ويوضح لهم ما يجب مراعاته في الكتابة بما هو من صلب النظم . قال : « فانما يكون الكاتب كاتباً إذا وضع كلّ معنى في موضعه ، وعلق كل لفظة على طبقها من المعنى ، فلا يجعل أول ما ينبغي له أن يكتب في آخر كتابه ، ولا آخره في أوله ، فاني سمعت جعفر بن محمد الكاتب يقول : لا ينبغي للكاتب أن يكون كاتباً حتى لا يستطيع أحد أن يؤخر أول كتابه ولا يقدم آخره »(٢١) .

(٨) المبرد : (ت ٢٨٦ هـ)

البلاغة عند المبرد هي حسن النظم ، قال : « فحق البلاغة إحاطة القول بالمعنى ، واختيار الكلام ، وحسن النظم حتى تكون الكلمة مقاربة اختها ومعاضدة شكلها »(٢٢) .

(٩) محمد بن يزيد الواسطي : (ت ٣٠٦ هـ)

ألّف الواسطي كتاباً أسماه : (اعجاز القرآن في نظمه وتأليفه)(٢٣) ، ولم يصل الينا . وقد

---

(٢١) الرسالة العذراء ١٧ .

(٢٢) البلاغة ٥٩ .

(٢٣) الفهرست ٦٣ .

شرحه عبدالقاهر الجرجاني مرتين ، ولم نقف على شرحيه أيضاً . ونتبين من العنوان أنّ الواسطي عالج فيه مسألة النظم واقام عليها إعجاز القرآن .

(١٠) الحسن بن علي بن نصر الطوسي : (ت ٣٠٨هـ)

له كتاب اسمه (نظم القرآن)(٢٤) ، وهو من الكتب التي لا نعرف عنها شيئاً .

(١١) الطبري المفسر : (ت ٣١٠ هـ)

يرى الطبري اعجاز القرآن في نظمه العجيب ، قال : « ومن أشرف تلك المعاني التي فضل بها كتابنا سائر الكتب قبله نظمه العجيب ووصفه الغريب وتأليفه البديع الذي عجزت عن نظم مثل أصغر سوره الخطباء وكلّت عن وصف شكله البلغاء وتحيرت في تأليفه الشعراء .. »(٢٥) .

(١٢) الجرجاني : أبو علي الحسن بن يحيى بن نصر الجرجاني (ت في أوائل القرن الرابع الهجري)(٢٦) :

(٢٤) طبقات المفسرين ١٣٨/١ .
(٢٥) تفسير الطبري ٦٥/١ .
(٢٦) لم أقف على سنة وفاته . وقد روى عنه محمد بن يوسف الطوسي المتوفى سنة ٣٤٤ هـ (تاريخ جرجان ١٨٦ ، اللباب في تهذيب الانساب ٢٨٨/٢) .

له كتاب (نظم القرآن) وهو في مجلدين(٢٧) . ولم يشر الى كتابه هذا أحد ممن درس اعجاز القرآن ونظمه من المحدثين .

والظاهر ان كتابه هذا كان معروفاً لدى العلماء مما حدا بمكي بن أبي طالب القيسي المغربي المتوفي سنة ٤٣٧ هـ الى تأليف كتابه الموسوم (انتخاب نظم القرآن للجرجاني واصلاح غلطه) في أربعة أجزاء(٢٨) . ومن اللافت للنظر ان كثيرين ممن كتبوا عن مكي لم يعرفوا الجرجاني فسكتوا عنه .

(١٣) عبدالله بن أبي داود السجستاني (ت ٣١٦هـ)

ألف كتاباً اسمه (نظم القرآن)(٢٩) ، وهو من الكتب التي لا نعرف عنها غير أسمائها المجردة .

(١٤) أبو زيد البلخي : أحمد بن سليمان (ت٣٢٢هـ)

جاء في كتاب (البصائر والذخائر)(٣٠) : « قال أبو حامد القاضي : لم أر كتاباً في القرآن مثل

(٢٧) تاريخ جرجان ١٨٦ .
(٢٨) فهرسة ابن خير ٤١ . وسماه القفطي في انباه الرواة على أنباه النحاة ٣١٦/٣ : (انتخاب كتاب الجرجاني في نظم القرآن واصلاح غلطه) .
(٢٩) تاريخ بغداد ٤٦٤/٩ .
(٣٠) ٣٧٩/٢ .

كتاب لأبي زيد البلخي ، وكان فاضلاً يذهب في راي الفلاسفة ، لكنه تكلم في القرآن بكلام لطيف دقيق في مواضع ، وأخرج سرائره ، وسمّاه : (نظم القرآن) ولم يأت على جميع المعاني المطلوبة منه » .

(١٥) ابن الاخشيد : احمد بن علي : (ت ٣٢٦ هـ)

ألّف كتاباً اسمه (نظم القرآن)(٣١) ، ولم يصل الينا .

(١٦) أبو بكر الصولي : (ت ٣٣٥ هـ)

قال : « نقد الشعر وترتيب الكلام ، ووضعه مواضعه ، وحسن الأخذ ، والاستعارة ، ونفي المستكره والجاسي صنعة براسها ، ولا تراه إلاّ لمن صحت طباعهم ، واتقدت قرائحهم ، وتنبّهت فطنتهم ، وراضوا الكلام ، ورَوَوا وميّزوا»(٣٢) .

---

(٣١) **الفهرست ٦٣ .**

(٣٢) **المصون ٥ . ولا بد هنا أن أشير الى أنني وقفت على بحث للدكتور أحمد نصيف الجنابي بعنوان : (نظرية النظم النحوي قبل عبدالقاهر) أشار فيها الى أن أبا جعفر النحاس (ت ٣٣٨ هـ) سبق عبدالقاهر بهذه النظرية في كتابه (القطع والائتناف) . (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق م ٥٣ جـ ١) .**

(١٧) أبو سعيد السيرافي : (ت ٣٥٨ هـ)

تطورت فكرة النظم عند السيرافي واخذت صورة اكثر جلاء حينما تحدث عن معاني النحو . قال : « معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وتوخي الصواب في ذلك وتجنب الخطأ في ذلك وإن زاغ شيء عن النعت فانّه لا يخلو أن يكون سائغاً بالاستعمال النادر والتأويل البعيد أو مردوداً لخروجه عن عادة القوم الجارية على فطرتهم »(٣٣) .

والسيرافي في حواره مع أبي بشر متى بن يونس حول النحو والمنطق ، ومكانة البلاغة بينهما ، يبين أن المراد بعلم النحو ليس حركات الاعراب فقط وانما هو في وضع الكلمات وترتيبها(٣٤) .

(١٨) علي بن عيسى الرماني : (ت ٣٨٦ هـ)

قال : « وحسن البيان في الكلام على مراتب : فأعلاها مرتبة ما جمع أسباب الحسن في العبارة من تعديل النظم حتى يحسن في السمع ويسهل على

---

(٣٣) **الامتاع والمؤانسة ١٠٧/١ .**

(٣٤) **ينظر نص المحاورة في المقابسات ٦٨ .**

اللسان وتتقبله النفس تقبل البرد ، وحتى يأتي على مقدار الحاجة فيما هو حقه من المرتبة »(٣٥) .

(١٩) الخطابي : حمد بن محمد : (ت ٣٨٨ هـ)

يرى الخطابي أن القرآن « إنّما صار معجزاً لأنّه جاء بأفصح الالفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني »(٣٦) . ويتحدث عن القرآن الكريم قائلاً : « ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه »(٣٧) . ويقول : « عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الاشكل به الذي إذا ابدل مكانه غيره جاء منه إمّا تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام وإمّا الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة »(٣٨) .

والنظم عنده ليس سهلاً ميسوراً وانما يحتاج الى ثقافة ومهارة . قال : « وأمّا رسوم النظم فالحاجة الى الثقافة والحذق فيها أكثر لأنّها لجام الالفاظ وزمام المعاني وبه تنتظم أجزاء الكلام ،

(٣٥) النكت في اعجاز القرآن ١٠٧ .

(٣٦)(٣٧) بيان اعجاز القرآن ٢٧ .

(٣٨) المصدر نفسه ٢٩ .

ويلتئم بعضه ببعض فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان »(٣٩) .

(٢٠) أبو هلال العسكري : (ت ٣٩٥ هـ)

عقد العسكري باباً في كتابه الصناعتين عن حسن النظم وجودة الرصف والسبك . قال : « وحسن الرصف أن توضَع الألفاظ في مواضعها ، وتمكّن في أماكنها ، ولا يُستعمل فيها التقديم والتأخير ، والحذف والزيادة إلاّ حذفاً لا يفسد الكلامَ ، ولا يُعمّي المعنى ، وتضم كل لفظة الى شكلها ، وتضاف الى لِفقها . وسوء الرصف تقديم ما ينبغي تأخيره منها ، وصرفها عن وجوهها ، وتغيير صيغتها ، ومخالفة الاستعمال في نظمها »(٤٠) .

(٢١) أبو بكر الباقلاني : (ت ٤٠٣ هـ)

يرى الباقلاني أنّ كتاب الله معجز بالنظم لأنّ نظمه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب . قال : « فأما شأو نظم القرآن فليس له مثال يحتذى عليه ولا إمام يقتدى به ولا يصح وقوع مثله اتفاقا كما يتفق للشاعر البيت النادر والكلمة الشاردة والمعنى الفذ الغريب والشيء القليل

(٣٩) المصدر نفسه ٣٦ .

(٤٠) الصناعتين ١٦٧ .

العجيب »(٤١) . وقال : « وقد تأملنا نظم القرآن ، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها ، على حدّ واحد ، في حسن النظم وبديع التأليف والرصف .. »(٤٢) .

وقال : « ليس الاعجاز في نفس الحروف وانما هو في نظمها واحكام رصفها وكونها على وزن ما اتى به النبي (ص) . وليس نظمها أكثر من وجودها متقدمة ومتأخرة ومترتبة في الوجود وليس لها نظم سواها »(٤٣) . وقال أيضاً : « وهو معجزة الرسول عليه السلام دال على نبوته من ثلاثة أوجه : أحدها ما فيه من عجيب النظم وبديع الرصف وانّه لا قدرة لأحد من الخلق على تأليف مثله ولا تأليف سورة منه أو آية بقدر سورة »(٤٤) .

(٢٢) القاضي عبدالجبار : (ت ٤١٥ هـ)

كان القاضي عبدالجبار أكثر العلماء وضوحاً في تناوله للنظم فقد بلور هذه الفكرة في كتابه المغني حيث عقد فصلين عرض في الأول رأي استاذه أبي هاشم الجبائي في الفصاحة التي بها يفضل بعض

(٤١) اعجاز القرآن ١١٢ .
(٤٢) المصدر نفسه ٣٧ .
(٤٣) التمهيد ١٥١ .
(٤٤) نكت الانتصار لنقل القرآن ٥٩ .

الكلام على بعض . وعرض في الثاني رأيه الخاص في الوجه الذي يقع له التفاضل في فصاحة الكلام .

قال : « قال شيخنا ابو هاشم : إنما يكون الكلام فصيحاً لجزالة لفظه وحسن معناه ولابد من اعتبار الأمرين ، لانّه لو كان جزل اللفظ ركيك المعنى لم يعدّ فصيحاً ، فاذن يجب أن يكون جامعاً لهذين الأمرين ، ~~لانه لو كان جزل اللفظ ركيك المعنى لم~~

وليس فصاحة الكلام بأن يكون له نظم

مخصوص ، لأنّ الخطيب عندهم قد يكون افصح من الشاعر ، والنظم مختلف إذا اريد بالنظم اختلاف الطريقة ، وقد يكون النظم واحداً ، وتقع المزية في الفصاحة فالمعتبر ما ذكرناه ، لانّه الذي يتبين في كل نظم وكل طريقة ، وانما يختص النظم بأن يقع لبعض الفصحاء ، يسبق اليه ، ثم يساويه فيه غيره من الفصحاء ، فيساويه في ذلك النظم ، ومن يفضل عليه بفضله في ذلك النظم »(٤٥) .

وكلام أبي هاشم صريح في أن النظم لا يصلح أن يكون مفسراً لفصاحة الكلام ، لأن النظم قد يكون واحداً ، ويفضل أديبٌ صاحبه فيه ، وكأنّه يرد بذلك على الجاحظ وأمثاله الذين يرجعون إعجاز القرآن الى نظمه وطريقته ، ويقول إنّه لا يوجد في الكلام إلاّ اللفظ والمعنى ولا ثالث لهما ، واذن فلابد

(٤٥) المغني في أبواب التوحيد والعدل ١٩٧/١٦ .

أن تكون الفصاحة راجعة اليهما بحيث يكون اللفظ جزلاً والمعنى حسناً(٤٦) .

ويوضح لنا القاضي عبدالجبار الفكرة فيقول معقباً على كلام استاذه أبي هاشم : « إنّ العادة لم تجر بأن يختص واحد بنظم دون غيره ، فصارت الطرق التي عليها يقع نظم الكلام الفصيح معتادة ، كما أن قدر الفصاحة معتاد ، فلابد من مزية فيهما ، ولذلك لا يصح عندنا أن يكون اختصاص القرآن بطريقة في النظم دون الفصاحة التي هي جزالة اللفظ وحسن المعنى . ومتى قال القائل : إني وان اعتبرت طريقة النظم فلابد من اعتبار المزية في الفصاحة فقد عاد الى ما أردناه »(٤٧) .

والقاضي عبدالجبار يرد بذلك على الباقلاني وغيره من الأشعرية الذين كانوا يذهبون مذهبه ، وهو والجبائي يقفان مع الرماني في محاولته بسط بلاغة الألفاظ والمعاني وتبيين وجوهها . وقد أحس القاضي بأن في فكرة استاذه نقصاً ، لأنّه لم يلاحظ صورة تركيب الكلام ، وهي أساسية في بلاغة العبارة وفصاحتها ، فقال :

---

(٤٦) البلاغة تطور وتاريخ ١١٥ .

(٤٧) المغني ١٦/١٩٧ .

« اعلم أنّ الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام ، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ، ولا بدّ مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة ، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم ، وقد تكون بالاعراب الذي له مدخل فيه ، وقد تكون بالموقع . وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع ، لأنّه إمّا أن تعتبَر فيه الكلمة ، أو حركاتها ، أو موقعها . ولابد من هذا الاعتبار في كل كلمة . ثم لابد من اعتبار مثله في الكلمات ، إذا انضم بعضها الى بعض ، لأنّه قد يكون لها عند الانضمام صفة ، وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها وموقعها . فعلى هذا الوجه الذي ذكرناه إنما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداها . فان قال : فقد قلتم إنّ في جملة ما يدخل في الفصاحة حسن المعنى فهلا اعتبرتموه ؟ قيل له : إنّ المعاني وان كان لابد منها فلا تظهر فيها المزية ولذلك تجد المعبّرين عن المعنى الواحد يكون أحدهما أفصح من الآخر والمعنى متفق. على أنّا نعلم أنّ المعاني لا يقع فيها تزايد ، فاذن يجب أن يكون الذي يُعتبَرالتزايد عند الألفاظ التي يعبر بها عنها . فاذا صحت هذه الجملة فالذي تظهر به المزية ليس إلاّ الابدال الذي به تختص الكلمات أو التقدم والتأخر الذي يختص الموقع أو الحركات التي تختص الاعراب فبذلك تقع المباينة .

ولابد في الكلامين اللذين أحدهما أفصح من الآخر أن يكون انما زاد عليه بكل ذلك أو ببعضه ، ولا يمتنع في اللفظة الواحدة أن تكون إذا استعملت في معنى تكون أفصح منها إذا استعملت في غيره ، وكذلك فيها اذا تغيرت حركاتها ، وكذلك القول في جملة من الكلام » . ثم اضاف : « وهذا يبين أن المعتبر في المزية ليس بنية اللفظة وان المعتبر فيه ما ذكرناه من الوجوه . فأمّا حسن النغم وعذوبة القول فمما يزيد الكلام حسناً على السمع لا انّه يوجد فضلاً في الفصاحة »(٤٨) .

* ● *

ذلك ما كانت عليه لفظة (النظم) قبل عبدالقاهر ، فقد كانت هذه اللفظة شائعة منذ القرن الثاني الهجري ولكن ليس في الأقوال التي أوردناها فكرة واضحة عنها إلاّ ما كان من كلام القاضي عبدالجبار الذي ربط الفصاحة بالنظم وبنى عليها رأيه في اعجاز القرآن . ففكرة النظم إذن قد أخذت طريقها المحدد المعالم على يد القاضي عبدالجبار وأصبحت فكرة منتظمة لها منهج معين .

---

(٤٨) المغني ١٦/١٩٩ .

الفصل الثاني

نظرية النظم عند عبدالقاهر

عبدالقاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) فقيه شافعي ومتكلم أشعري ، درس النحو وألّف فيه ، غير أنّ شهرته كانت بكتاباته البلاغية إذ استطاع أن يضع نظريتي علمي المعاني والبيان وضعاً دقيقاً .

وقد وقف حياته في سبيل العلم فعرض لاعجاز القرآن وردّ على كثير من المتكلمين ليخلص من ذلك الى فكرته في النظم التي خصص لعرضها وتفصيلها والتطبيق عليها كتابه (**دلائل الاعجاز**) .

وفكرة النظم هذه أصبحت من أهم وجوه الاعجاز خطراً عند عبدالقاهر كما سنرى إذ رأى فيها الأمن والطمأنينة لعقيدته وعقله فهو لا يرى الصواب في غيرها بل الزيغ والضلال في الخروج عنها(١) .

* ● *

---

(١) لم اتحدث عن حياة عبدالقاهر وآثاره لان هناك مؤلفات أفردت له ، منها :

عبدالقاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية : د . أحمد أحمد بدوي .

عبدالقاهر الجرجاني بلاغته ونقده : د . أحمد مطلوب .

عبدالقاهر والبلاغة العربية : محمد عبدالمنعم خفاجي .

البلاغة والفصاحة وصلتهما بالنظم

لم يفرق عبدالقاهر بين المصطلحين فنراه يستعمل الفصاحة مرادفة للبلاغة في مواطن كثيرة . والفصاحة والبلاغة والبراعة والبيان مما يعبر بها « عن فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا وتكلموا وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد ، وراموا أن يعلموهم ما في نفوسهم ، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم »(٢) .

وقال : « لا يجوز الاستدلال من وصف اللفظ بالفصاحة دون المعنى الى أنّ المزية فيه »(٣) .

ومعنى هذا : أنّ الفصاحة في الألفاظ والبلاغة للمعاني ، وما دام الأمر كذلك فقصر الفصاحة على اللفظ دون البلاغة لا يدل على أنّ المزيّة فيه بل يصح أن يوصف بالبلاغة أيضاً(٤) .

وقال : « الفصاحة في ترتيب الألفاظ حسب

(٢) دلائل الاعجاز ٣٩ – ٤٠ .
(٣) نفسه ٥٠ .
(٤) ينظر في البلاغة والفصاحة مصطلحات بلاغية ٤١ ، ٩ .

المعاني » . وهذا ينطبق على البلاغة حسب رأيه ، فهو يرى أنّ موضع الفصاحة هو التلاؤم بين الحروف والتلاؤم بين الكلمات في النطق .

وقال : « إذا قصرنا الفصاحة على هذه الصفة لزمنا أن نخرج الفصاحة من حيز البلاغة ، ومن أن تكون نظيرة لها ، وإذا فعلنا فامّا أن تكون العمدة في المفاضلة بين عبارتين وهذا شفيع للجور على المعاني ، لأنّ ذلك لا يتعلق بتلاؤم الحروف ، إذا أخذنا بالثاني وهو أن تكون وجهاً من وجوه التفاضل في العبارة لا يضرنا ذلك ونكون أخرجنا الفصاحة عن حيز البلاغة ، وأن تكون نظيرة لها من حيث دلالة المعنى ، أو أن نجعلها اسماً مشتركاً يُدَلّ به تارة على ما يدل بالبلاغة ، وتارة الى سلامة اللفظ مما يثقل على اللسان ، وليس واحد من الأمرين بقادح فيما نحن بصدده » .

نخلص من هذا الى أن لفظتي البلاغة والفصاحة لم تتخصصا حتى عهد عبدالقاهر بمعنيهما الاصطلاحيين لذا نراه يستعملهما مترادفتين .

والبلاغة والفصاحة عند عبدالقاهر لا ترجعان الى اللفظ وإنما الى النظم وكيفيات الصياغة وصورها وخصائصها . قال : « ومن المعلوم أن لا معنى لهذه العبارات وسائر ما يجري مجراها مما

يفرد بالنعت والصفة وينسب فيه الفضل والمزية إليه دون المعنى .... فينبغي أن ينظر الى الكلمة قبل دخولها في التأليف ، وقبل أن تصير الى الصورة التي بها يكون الكلم إخباراً وأمراً ونهياً واستخباراً وتعجباً ، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل الى إفادتها الاّ بضم كلمة وبناء لفظة على لفظة ... وهل يقع في وهم ، وان جهد ، أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير ان ينظر الى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة وتلك غريبة وحشية ، أو أن تكون حروف هذه اخف ، وامتزاجها أحسن ، ومما يكد اللسان أبعد »(٥) . وذهب عبدالقاهر بعد ذلك الى أنّ اللفظة المفردة من حيث هي لفظة لا وزن لها في فصاحة أو بلاغة : « وهل تجد أحداً يقول : هذه اللفظة فصيحة إلاّ وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها . وهل قالوا : لفظة متمكنة ومقبولة وفي خلافها قلقة ونابية ومستكرهة إلاّ وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها ، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم ، وأن الأولى لم تلق بالثانية في معناها ، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لِفقاً للتالية في مؤداها ». وبعد أن مثل لذلك بأمثلة اثبت بها أن اللفظة ليست

لها صفة ادبية ذاتية بحيث يمكن ان نصفها بوصف البلاغة والفصاحة ، انتهى الى القول : « فقد اتضح إذن اتضاحاً لا يدع للشك مجالاً أن الالفاظ لا تتفاضل من حيث هي الفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم مفردة وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ ، ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر كلفظ الأخدع في بيت الحماسة :

تلفت نحو الحي حتى وجدتني
وجعت من الاصغاء لِيتاً واخدعا(٦)

وبيت البحتري(٧) :

وإني وان بلّغتني شرفَ الغنىَ
واعتقتَ من رقّ المطامعِ أَخْدَعي

فانّ لها في هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن ، ثم إنك تتأملها في بيت أبي تمام(٨) :

(٥) دلائل الاعجاز ٤٠ ـ ٤١ .

(٦) اختلف في نسبته الى الصمة او ابن الطثرية او المجنون. ينظر تخريج ذلك في شعر يزيد بن الطثرية ٧٨ .

(٧) ديوانه ١٢٤١ .

(٨) ديوانه ٤٠٥/٢ .

يا دهرُ قوّمْ من أخدَعَيك فقد
أضججتَ هذا الأنامَ من خرُقِك

فتجد لها من الثقل على النفس ومن التنغيص والتكدير أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة، والايناس والبهجة ... فلو كانت الكلمة حسنت من حيث هي لفظ وإذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع اخواتها المجاورة لها في النظم لما اختلف بها الحال ولكانت إما أن تحسن أبداً أو لا تحسن أبداً »(٩) .

ليست البلاغة اذن بعائدة الى الألفاظ المفردة ، لأنّها لا يقع بينها التفاضل كما وضح عبدالقاهر ، وهي لا تتفاضل إلاّ اذا اندرجت في سلك التعبير ، وانضم بعضها الى بعض ، وأخذت مكانها الطبيعي الذي تقتضيه الصورة وانسجمت مع ما قبلها وما بعدها لأداء معنى يريده الاديب .

ومن هذا نخلص الى أن بلاغة الكلام وفصاحته تلتقي تماماً مع فكرة النظم التي أتعب عبدالقاهر نفسه في شرحها والتدليل عليها .

---

(٩) دلائل الاعجاز ٤٢ ــ ٤٣ .

اللفظ والمعنى وصلتهما بالنظم

لم يغفل ارسطو الاشارة الى ما بين الألفاظ ومعانيها في الجمل من صلة فهو يرى جمال الاسلوب في نظام الجملة وفي توازي أجزائها أو توافر السجع أحياناً في هذه الأجزاء .

والكلمات عند ارسطو رموز للمعاني ، ووسيلة للمحاكاة . وهي المادة التي تصاغ منها الاستعارات، فهي متفاوتة فيما بينها ما بين جميلة وقبيحة . « وجمال الكلمات وقبحها ينشأ عن جرسها أو معناها » . وليست الكلمات سواء في دلالتها على المعنى . « فمن الكلمات ما هي أصدق في وصف الشيء من كلمات أخرى ، وألصق بالمعنى ، أو أكثر تمثيلاً له أمام العيون .. هذا الى أنّ الكلمتين المختلفتين تمثلان الشيء من جوانب مختلفة . فيمكن إذن أن نعد احدى الكلمتين أجمل من الاخرى ، أو أقبح منها . إذ أنّ كلا الكلمتين تؤدي معنى الجمال أو معنى القبح ، ولكنها لا تؤدي مجرد معنى الجمال أو القبح ، وحتى لو اقتصرت على مجرد هذا المعنى فان الكلمتين لاتؤديانه أبداً بدرجة واحدة .. فكلمات

المجاز يجب أن تكون جميلة في الاذن ، وفي الفهم ، وفي العين ، وكل حاسة من الحواس الاخرى»(١٠) .

ولم يقف ارسطو طويلاً أمام اللفظ والمعنى ليُرجّح أحدهما على الآخر ، ويفهم من كلامه أن اللفظ علامة على المعنى ، وهو وسيلة المحاكاة ، وأن الالفاظ تتفاوت فيما بينها جمالاً وقبحاً من حيث دلالتها على المعنى وعلى جوانبه المختلفة ، وأن المتكلم يستعين ـ على حسب قصده ـ بألفاظ قد تستر جانب القبح في الاشياء أو تكشف عنه . وأن الالفاظ يجب أن تختار لتلائم موقعها في الجمل وفي صياغة المجاز ، وفي الغاية من المعنى المراد ، وهذا جمالها في معناها ومعرضها ، ويتصل بهما جمالها في جرسها على حسب السياق ، ثم إنّ من جمال الآسلوب ما يستعان فيه بالالفاظ وجرسها ونظامها كما في المزاوجة والسجع(١١) .

وشغلت مسألة اللفظ والمعنى النقاد والبلاغيين العرب منذ عهد مبكر وانقسموا فيها على طوائف متعددة ، فمنهم من اهتم بالمعنى وأغفل شأن اللفظ، ومنهم من اهتم باللفظ ، ومنهم من ساوى بين اللفظ والمعنى ، ومنهم من نظر الى الالفاظ من جهة دلالتها على معانيها في نظم الكلام .

(١٠) النقد الادبي الحديث ٢٥٢ ـ ٢٥٣ .

(١١) المصدر نفسه ٢٥٤ .

وقد كان أبو عمرو الشيباني لا يحفل إلاّ بالمعنى ، فمتى كان المعنى رائقاً حسناً ظلّ كذلك في أيّة عبارة وُضع فيها ، فالبيتان :

لا تحسبنّ الموتَ موتَ البلى
فانّما الموتُ سؤالُ الرجال

كلاهما موتٌ ولكنّ ذا
أفظعُ من ذاك لذلِ السؤال

استحسنهما أبو عمرو على حين أن ليست عليهما مسحة أدبية سوى الوزن ، وعابه الجاحظ ورأى أنّه مسرف في تقديرها وقال : « وأنا رأيت أبا عمرو الشيباني وقد بلغ من استجادته لهذين البيتين ونحن في المسجد يوم الجمعة أن كلّف رجلاً حتى أحضره دواة وقرطاساً حتى كتبهما له . وأنا أزعم أنّ صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبداً ولولا أن ادخل في الحكم بعض الفتك لزعمت أنّ ابنه لا يقول شعراً أبداً »(١٢) .

ومن هذه القصة نميل الى أنّ الجاحظ يجمع بين اللفظ والمعنى أو أنّه من أصحاب الصياغة القائمة على هذين الركنين .

(١٢) الحيوان ١٣١/٣ .

وكان الجاحظ يرى أن العناية بالالفاظ جديرة بالاهتمام ودفعته العناية باللفظ الى أن يقول : « والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني ، وانما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع وجودة السبك ، فانّما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير »(١٣) فقيمة اللفظ عنده فوق قيمة المعنى .

وظن بعض الباحثين أن الجاحظ يميل الى اللفظ كل الميل وانّه يهمل المعنى كل الاهمال ، والحق انّه عني بالمعنى كما عني باللفظ ، وقوله : « فانما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير » يوضح رأيه ويظهر نزعته(١٤) .

وذهب قدامة بن جعفر مذهب الجاحظ فحكم على الشعر بصورته فلو أن الكاتب أكبر من شأن حقير أو حقّر من شأن عظيم ، وبعبارة اخرى : لو كان المعنى وضيعاً ، واللفظ شريفاً لما نال ذلك من شأن الكاتب بل لعدّ مقياس براعته . فقدامة يؤمن بالصياغة والشكل : لأنّ الشاعر ليس يوصف بأن يكون صادقاً ، بل إنما يراد منه ، اذا أخذ في

(١٣) المصدر نفسه .

(١٤) عبدالقاهر الجرجاني بلاغته ونقده : ٩١ .

معنى من المعاني – كائناً ما كان – أن يجيده في وقته الحاضر لا أن يطالب بأن لا ينسخ ما قاله في وقت آخر »(١٥) .

ونقل عن المبرد أنه قال : « حدثني التّوّزيّ قال : قلت للأصمعي : مَنْ أشعر الناس ؟ فقال : من يأتي الى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيراً ، أو الى الكبير فيجعله بلفظه خسيساً »(١٦) .

وذهب أبو هلال العسكري هذا المذهب أيضاً ، قال : « وليس الشأن في ايراد المعاني لأنّ المعاني يعرفها العربيّ والعجمي والقروي والبدوي ، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه ، وحسنه وبهائه ، ونزاهته ونقائه ، وكثرة طلاوته ومائه ، مع صحة السبك والتركيب ، والخلوّ من أوَدِ النظم والتأليف . وليس يطلب من المعنى إلاّ أن يكون صواباً ، ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه من نعوته التي تقدمت ... ومن الدليل على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ أنّ الخطب الرائعة ، والأشعار الرائقة ما عملت لافهام المعاني فقط ، لأنّ الرديء من الالفاظ يقوم مقام الجيدة

(١٥) نقد الشعر ٢١ .

(١٦) المصدر نفسه ١٩٤ .

منها في الافهام ، وإنما يدل حسنُ الكلام ، واحكامُ صنعته ، ورونقُ ألفاظه ، وجودة مطالعه ، وحسن مقاطعه ، وبديع مباديه ، وغريب مبانيه على فضل قائله ، وفهم مُنشئه . واكثر هذه الاوصاف ترجع الى الالفاظ دون المعاني ... »(١٧) .

ومن نقاد العرب من عني باللفظ والمعنى على السواء ، ومن اقدم النصوص في ذلك صحيفة بشر ابن المعتمر التي مرّ ذكرها ، يقول فيها : « فانّ التوعر يسلمك الى التعقيد ، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ، ويشين ألفاظك ، ومن أراغَ معنى كريماً فليلتمس له لفظاً كريماً ، فانّ حقَّ المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجّنهما ... فكن في ثلاث منازل ، فان أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقاً عذباً ، وفخماً سهلاً ، ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً ، وقريباً معروفاً ، إما عند الخاصة ان كنت للخاصة قصدت وإمّا عند العامة ان كنت للعامة أردت . والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة ، وكذلك ليس يتّضع بأن يكون من معاني العامة . وانما مدار الشرف على الصواب واحراز المنفعة ،

(١٧) الصناعتين ٦٣ – ٦٤ .

مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال ... »(١٨) .

ومن سوّى بين اللفظ والمعنى ابن قتيبة ، فخير الشعر عنده ما حسن لفظه وجاد معناه فاذا قصر اللفظ عن المعنى ، أو حلا اللفظ ولم يكن وراءه طائل ، كان الكلام معيباً ، ويضرب مثلاً لهذا الاخير قول الشاعر(١٩) :

ولما قضينا من مِنى كلّ حاجة
ومسّح بالأركان من هو ماسحُ
وشُدّت على حدب المهارى رحالنا
ولم ينظر الغادي الذي هو رائحُ
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطيّ الاباطحُ

قال ابن قتيبة : « هذه الالفاظ كما ترى احسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع، وان نظرت الى ما تحتها من المعنى وجدته : ولما قطعنا أيام منى ، واستلمنا الاركان ، وعالينا ابلنا الانضاء ، ومضى

(١٨) البيان والتبيين ١٣٦/١ .

(١٩) اختلف فيه ، ينظر تفصيل ذلك في شعر يزيد بن الطثرية ٦٤ .

الناس لا ينتظر الغادي الرائح ، ابتدأنا في الحديث ، وسارت المطيّ في الابطح »(٢٠) .

واشار ابن رشيق القيرواني الى ضرورة التلاحم بين اللفظ والمعنى ، قال : « اللفظ جسم ، وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فاذا سلم المعنى واختلّ بعض اللفظ كان نقصاً للشعر وهجنة عليه ، كما يعرض لبعض الاجسام من العرج والشلل والعور وما أشبه ذلك ، من غير أن تذهب الروح ، وكذلك ان ضعف المعنى واختلّ بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ ، كالذي يعرض للاجسام من المرض بمرض الارواح ، ولا تجد معنى يختل الا من جهة اللفظ ، وجَرْيه فيه على غير الواجب ، قياساً على ما قدمت من أدواء الجسوم والارواح ، فان اختل المعنى كله وفسد بقي اللفظ مواتاً لا فائدة فيه ، وان كان حسن الطلاوة في السمع ، كما أنّ الميت لم ينقص من شخصه شيء في رأي العين ، إلاّ أنّه لا ينتفع به ولا يفيد فائدة ، وكذلك ان اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى ، لأنا لا نجد روحاً في غير جسم البتة »(٢١) .

* ● *

---

(٢٠) الشعر والشعراء ٦٧ .

(٢١) العمدة ١٢٤/١ .

انتهت كل هذه الآراء حول مشكلة اللفظ والمعنى الى عبدالقاهر فأعمل فيها فكره ودرسها دراسة نقد وتمحيص فوجد أن بعض النقاد والبلاغيين أسرف في تعظيم اللفظ ، لذلك فقد وقف يقاوم هذا الراي ويرد على اللفظيين وفساد ذوقهم في فهم الكلام . قال : « واعلم أنك كلما نظرت وجدت سبب الفساد واحداً وهو ظنهم الذي ظنوه في اللفظ وجعلهم الاوصاف التي تجري عليه كلها أوصافاً له في نفسه من حيث هو لفظ وتركهم أن يميزوا بين ما كان وصفاً له في نفسه وبين ما كانوا قد أكسبوه إياه من أجل أمر عرض في معناه . ولما كان هذا دأبهم ثم رأوا الناس وأظهر شيء عندهم في معنى الفصاحة تقويم الاعراب والتحفظ من اللحن لم يشكوا انّه ينبغي أن يعتد به في جملة المزايا التي يفاضل بها بين كلام وكلام في الفصاحة ، وذهب عنهم أن ليس هو من الفصاحة التي يعنينا أمرها في شيء وان كلامنا في فصاحة تجب للفظ لا من أجل شيء يدخل في النطق ولكن من أجل لطائف تدرك بالفهم » ، ثم قال : « وجملة الأمر أنك لا ترى ظناً هو أنأى بصاحبه عن أن يصح له كلام أو يستمر له نظام ، أو تثبت له قدم ، أو ينطق منه إلاّ بالمحال فم ، من ظنهم هذا الذي حام بهم حول اللفظ وجعلهم لا يعدونه ، ولا يرون للمزية مكاناً دونه » ، ثم قال : « ومعلوم أن

الأمر بخلاف ذلك فأنا نرى اللفظة تكون في غاية الفصاحة في موضع ونراها بعينها فيما لا يحصى من المواضع وليس فيها من الفصاحة قليل ولا كثير ، وانما كان كذلك لان المزية التـي من أجلها نصف اللفظ في شأننا هذا بأنه فصيح ، مزية تحدث من بعد أن لا تكون ، وتظهر في الكلم من بعد أن يدخلها النظم ، وهذا شيء إن انت طلبته فيها وقد جئت بها أفراداً لم تَرُم فيها نظماً ، ولم تحدث لها تأليفاً ، طلبت محالاً »(٢٢) . وقال في موضع آخر : «واعلم ان الذي هو آفة هؤلاء الذين لهجوا بالاباطيل في أمر اللفظ أنهم قوم قد أسلموا أنفسهم الى التخيل ، والقوا مقادتهم الى الاوهام . حتى عدلت بهم عن الصواب كل معدل ودخلت بهم من فحش الغلط في كل مدخل . وتعسفت بهم في كل مجهل . وجعلتهم يرتكبون في نصرة رايهم الفاسد القول بكل محال . ويقتحمون في كل جهالة »(٢٣) .

وقال في موضع آخر : « فان أردت الصدق فانك لا ترى في الدنيا شأناً اعجب من شأن الناس مع اللفظ ولا فساد رأي مازج النفوس وخامرها واستحكم فيها وصار كاحدى طبائعها أغرب من

(٢٢) دلائل الاعجاز ٢٦٢ ـ ٢٦٤ .
(٢٣) المصدر نفسه ٢٧١ .

فساد رأيهم في اللفظ فقد بلغ من ملكته لهم وقوته عليهم أنْ تركهم وكأنّهم إذا نوظروا فيه أخذوا عن أنفسهم وغيبوا عن عقولهم وحيل بينهم وبين أن يكون لهم فيما يسمعونه نظر ، ويرى لهم ايراد في الاصغاء وصدر ، فلست ترى إلاّ نفوساً قد جعلت ترك النظر دأبها ووصلت بالهوينا أسبابها ، فهي تغتر بالاضاليل وتتباعد عن التحصيل وتلقي بأيديها الى الشبه وتسرع الى القول المموّه » .

وقال أيضاً : « وشبيه بهذا التوهم منهم انّك قد ترى أحدهم يعتبر حال السامع فاذا رأى المعاني لا تترتب في نفسه إلاّ بترتب الالفاظ في سمعه ظنّ عند ذلك أنّ المعاني تبع للالفاظ ، وأنّ الترتب فيها مكتسب فيها من الالفاظ ومن ترتبها في نطق المتكلم ، وهذا ظن فاسد ممن يظنه ، فان الاعتبار ينبغي أن يكون بحال الواضع للكلام والمؤلف له ، والواجب أنْ ينظر الى حال المعاني معه لا مع السامع . واذا نظرنا علمنا ضرورة أنّه محال أن يكون الترتب فيها تبعاً لترتب الالفاظ ومكتسباً عنه ، لأنّ ذلك يقتضي أن تكون الالفاظ سابقة للمعاني وأنْ تقع في نفس الانسان أولاً ثم تقع المعاني من بعدها وتالية لها بالعكس مما يعلمه كل عاقل اذا هو لم يُؤخذ عن نفسه ، ولم يُضرب حجاب بينه وبين عقله . وليت شعري هل كانت

الالفاظ إلاّ من اجل المعاني ؟ وهل هي الاّ خدم لها ومصرفة على حكمها ؟ او ليست هي سمات لها وأوضاعاً قد وضعت لتدلّ عليها ؟ فكيف يتصور أنْ تسبق المعاني وأنْ تتقدمها في تصور النفس ؟ إنْ جاز ذلك أنْ تكون أسامي الاشياء قد وضعت قبل أنْ عرفت الاشياء وقبل أنْ كانت . وما أدري ما أقول في شيء يجرّ الذاهبين اليه الى أشباه هذا من فنون المحال ورديء الاحوال ؟ »(٢٤) .

الالفاظ عند عبدالقاهر إذاً رموز للمعاني المفردة التي تدل عليها هذه الرموز أو مجرد علامات للاشارة الى شيء ما وليست للدلالة على حقيقته ، والانسان يعرف مدلول اللفظ المفرد أولاً ثم يعرف هذا اللفظ الذي يدلّ عليه ثانياً .

وقال : « انّ الالفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها ولكن لأن يضم بعضها الى بعض فيعرف فيما بينها من فوائد . وهذا علم شريف وأصل عظيم ، والدليل على ذلك انّا إنْ زعمنا أنّ الالفاظ التي هي أوضاع اللغة انما وضعت ليعرف بها معانيها في أنفسها لأدى ذلك الى ما لا يشك عاقل في استحالته ... ومن ذا الذي يشك انّا لم نعرف الرجل والفرس والضرب والقتل إلاّ

(٢٤) دلائل الاعجاز ٢٧٣ .

من اساميها ، لو كان لذلك مساغ في العقل لكان ينبغي إذا قيل (زيد) أن تعرف المسمى بهذا الاسم من غير أنْ تكون قد شاهدته أو ذكر لك بصفة»(٢٥).

فليس للالفاظ مزية وهي منفردة وانما تختص اذا توخي فيها النظم ، قال : « كيف والالفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف ويُعمد بها الى وجه دون وجه من التركيب، فلو أنّك عمدت الى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عدّاً كيف جاء واتفق . وأبطلت نضده ونظامه الذي عليه بُني ، وفيه أُفرغ المعنى وأجري ، وغيّرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد ما أفاد ، وبنسقه المخصوص أبان المراد ، نحو أن تقول في : (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) : (منزل قفا ذكرى من نبك حبيب) أخرجته من كمال البيان الى محال الهذيان ، نعم واسقطت نسبته من صاحبه ، وقطعت الرحم بينه وبين منشئه ، بل أحلت أنْ يكون له اضافةٌ الى قائل ، ونسبٌ يختص له بمتكلم . وفي ثبوت هذا الاصل ما تعلم به أنّ المعنى الذي له كانت هذه الكلم بيت شعر أو فصل خطاب هو ترتيبها على طريقة معلومة ، وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة »(٢٦) .

(٢٥) نفسه ٣٥٠ .

(٢٦) أسرار البلاغة ٣ .

فالالفاظ عند عبدالقاهر لا تتمايز من حيث هي الفاظ مفردة وانما تكون لها المزية حينما تنتظم مع بعضها مكونة جملاً وعبارات ، وان الفصاحة والبلاغة وسائر ما يجري في طريقتهما أوصاف راجعة الى المعاني والى ما يدل عليه بالالفاظ دون انفسها ، قال : « لأنّه إذا لم يكن في القسمة الاّ المعاني والالفاظ وكان لا يعقل تعارض في الالفاظ المجردة الاّ ما ذكرت لم يبق الاّ أن تكون المعارضة معارضة من جهة ترجع الى معاني الكلام المعقولة دون الفاظه المسموعة . واذا عادت المعارضة الى جهة المعنى وكان الكلام يعارض من حيث هو فصيح وبليغ ومتخير اللفظ حصل من ذلك أنّ الفصاحة والبلاغة وتخير اللفظ عبارة عن خصائص ووجوه تكون معاني الكلام عليها وعن زيادات تحدث في أصول المعاني» . وهذا هو ما سمّاه معنى المعنى أو المعاني الثانية ، لأنّ الكلام ضربان : ضرب تصل منه الى الغرض بدلالة اللفظ وحده كقولك : خرج زيد . وضرب لا تصل منه الى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن اللفظ يدل على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها الى الغرض . قال : « أو لا ترى انّك اذا قلت : هو كثير رماد القدر ، أو قلت : طويل النجاد ، أو قلت في المراة : نؤوم الضحى ، فانّك في جميع ذلك

لا تفيد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانياً هو غرضك كمعرفتك من كثير رماد القدر انّه مضياف ومن طويل النجاد انّه طويل القامة ، ومن نؤوم الضحى في المراة انّها مترفة مخدومة لها مَنْ يكفيها أمرها . . . »(٢٧) . ثم لخص الجرجاني هذه الفكرة فقال : « واذ قد عرفت هذه الجملة فها هنا عبارة مختصرة وهي أنْ تقول : المعنى ومعنى المعنى، تعني بالمعنى : المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل اليه بغير واسطة ، وبمعنى المعنى : أنْ تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى الى معنى آخر كالذي فسرت لك »(٢٨) .

ومن هذا نرى أنّ المعاني الاضافية عند عبدالقاهر هي أساس جمال الكلام واليها ترجع الفضيلة . وهذه الفكرة لم يلتفت اليها أحد من نقاد العرب السابقين ، وتناولها بالبحث النقاد الغربيون وسموها (معنى المعنى) أيضاً :
(The Meaning of Meaning)

---

(٢٧) دلائل الاعجاز ١٨٠ .
(٢٨) نفسه ١٨٠ .

والالفاظ عنده تقع مرتبة على المعاني المرتبة في النفس لانّك ترتب المعاني أولاً في نفسك ثم تحذو على ترتيبها الالفاظ في نطقك لانه « لا يتصور ان تعرف للفظ موضعاً من غير أنْ تعرف معناه ، ولا أنْ تتوخى في الالفاظ من حيث هي الفاظ ترتيباً ونظماً ، وانك تتوخى الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك فاذا تمّ لك ذلك أتبعتها الالفاظ وقفوت بها آثارها ، وانّك اذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج الى ان تستأنف فكراً في ترتيب الالفاظ بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها ولاحقة بها ، وأنّ العلم بمواقع المعاني في النفس ، علم بمواقع الالفاظ الدالة عليها في النطق »(٢٩) .

فالاديب حينما يكتب لا يفكر بالالفاظ ولا يطلبها وإنّما يطلب المعنى ، أمّا الالفاظ فتبع له تأتي عند التفكير به وترتب حسب ترتيبه في النفوس.

ومن هذا نرى أنّ عبدالقاهر جمع بين اللفظ والمعنى عن طريق ما يحدث بينهما من التحام في الصياغة والتصوير .

---

(٢٩) نفسه ٤٧ .

فكرة النظم وصلتها بالنحو

عبدالقاهر أول عالم أخرج النحو من نطاق شكليته وجفافه وسما به فوق الخلافات والتأويلات حول البناء والاعراب ، لقد أخضع النحو لفكرة النظم ، قال : « معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض »(٣٠) .

وهو في سبيل توضيح هذا التعريف قال :

« والكلم ثلاث : اسم وفعل وحرف ، وللتعليق فيما بينها طرق معلومة ، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام : تعلق اسم باسم وتعلق اسم بفعل وتعلق حرف بهما . فالاسم يتعلق بالاسم بأن يكون خبراً عنه أو حالاً منه أو تابعاً له صفة أو تأكيداً أو عطف بيان أو بدلاً أو عطفاً بحرف ، أو بأن يكون الاول مضافاً الى الثاني ، أو بأن يكون الاول يعمل في الثاني عمل الفعل ويكون الثاني في حكم الفاعل له أو المفعول .. أو بأن يكون تمييزاً .

---

(٣٠) دلائل الاعجاز ٥ .

وامّا تعلق الاسم بالفعل فبأن يكون فاعلاً له او مفعولاً ، فيكون مصدراً قد انتصب به .. ويقال له المفعول المطلق ، او مفعولاً به .. او ظرفاً مفعولاً فيه زماناً او مكاناً .. او مفعولاً معه .. او مفعولاً له .. او بأن يكون منزلاً من الفعل منزلة المفعول وذلك في خبر كان واخواتها والحال والتمييز المنتصب عن تمام الكلام .. ومثله الاسم المنتصب على الاستثناء ..

وامّا تعلق الحرف بهما فعلى ثلاثة اضرب : احدها أن يتوسط بين الفعل والاسم فيكون ذلك في حروف الجر التي من شأنها أن تعدي الافعال الى ما لا تتعدى اليه بأنفسها من الاسماء .. وكذلك سبيل الواو بمعنى (مع) .. وكذلك حكم إلاّ في الاستثناء فانّها عندهم بمنزلة هذه الواو الكائنة بمعنى (مع) في التوسط .

والضرب الثاني من تعلق الحرف بما يتعلق به العطف وهو أن يدخل الثاني في عمل العامل في الاول .

والضرب الثالث تعلق بمجموع الجملة كتعلق حرف النفي والاستفهام والشرط والجزاء بما يدخل عليه »(٣١) .

(٣١) دلائل الاعجاز ٥ ـ ٧ .

هذه هي الطرق والوجوه في تعلق الكلم بعضها ببعض وهي معاني النحو واحكامه . ويظهر منها أنّ الكلام لا يكون من جزء واحد وانّه لابد من مسند ومسند اليه ، وهما ركنا الجملة الاساسيان ، وانّه لا يكون كلام من حرف وفعل أصلاً ولا من حرف واسم إلاّ في النداء . فالنظم عند عبدالقاهر ليس سوى حكم من النحو نتوخاه . قال :

وقد علمنا بأنّ النظم ليس سوى
حكمٍ من النحو نمضي في توخّيه(٣٢)

وقال الجرجاني : « واعلم انك اذا رجعت الى نفسك علمت علماً لا يعترضه الشك ان لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض وتجعل هذه بسبب من تلك ، هذا ما لا يجهله عاقل ولا يخفى على أحد من الناس»(٣٣) .

وقال أيضاً : « واعلم أن ليس النظم إلاّ أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها ..»(٣٤) .

(٣٢) دلائل الاعجاز ٩ .
(٣٣) المصدر نفسه ٤٧ .
(٣٤) المصدر نفسه ٦٤ .

فالنظم عنده معاني النحو ولذلك نراه يكرر هذا المعنى ويعيده . قال : « فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً وخطؤه ان كان خطأً الى النظم ويدخل تحت هذا الاسم إلاّ وهو معنى من معاني النحو قد اصيب به موضعه ووضع في حقه أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له ، فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم أو فساده او وصف بمزية وفضل فيه إلاّ وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل الى معاني النحو وأحكامه ووجدته يدخل في أصل من أصوله ويتصل بباب من أبوابه »(٣٥) .

فليست العمدة في معرفة قواعد النحو وحدها ولكن فيما تؤدي اليه هذه القواعد والاصول ، وقد يكون أحدنا لا يعرف التسميات الدقيقة لموضوعات النحو ولكنه يعرف الفروق بينها ويحس بمعانيها حينما يسمعها،شأنه في ذلك شأن البدوي الذيعاش بعيداً عن المصطلحات وما تعنى به كتب النحو غير أنّه كان يفهم ما يسمع ويميز بين أسلوب وأسلوب. وقد اوضح عبدالقاهر هذه المسألة وقرر أن الأمر يتعلق بمعاني العبارات ووضعها مواضعها لا بمعرفة

(٣٥) المصدر نفسه ٦٤ .

قواعد النحو والصرف . قال : « قالوا : لو كان النظم يكون في معاني النحو لكان البدوي الذي لم يسمع بالنحو قط ولم يعرف المبتدأ والخبر وشيئاً مما يذكرونه لا يتأتى له نظم كلام ، وإنا لنراه يأتي في كلامه بنظم لا يحسنه المتقدم في علم النحو . قيل : شبهة من جنس ما عرض للذين عابوا المتكلمين فقالوا : انّا نعلم أن الصحابة رضى الله عنهم والعلماء في الصدر الاول لم يكونوا يعرفون الجوهر والعرض وصفة النفس وصفة المعنى وسائر العبارات التي وضعتموها فان كان لا تتم الدلالة على حدوث العالم والعلم بوحدانية الله الا بمعرفة هذه الاشياء التي ابتدأتموها فينبغي لكم أن تدعوا أنكم قد علمتم في ذلك ما لم يعلموه وأن منزلتكم في العلم أعلى من منازلهم . وجوابنا هو مثل جواب المتكلمين ، وهو ان الاعتبار بمعرفة مدلول العبارات لا بمعرفة العبارات : فاذا عرف البدوي الفرق بين أن يقول : جاءني زيد راكباً ، وبين قوله : جاءني زيد الراكب ، لم يضره أنْ لا يعرف أنه اذا قال (راكباً) كانت عبارة النحويين فيه أن يقولوا في راكب أنه حال ، واذا قال : (الراكب) ، انه صفة جارية على زيد . واذا عرف في قوله : زيد منطلق ، أنّ زيداً مخبر عنه ، ومنطلق خبر ، لم يضره أن نسمي زيداً مبتدأ » .

فالقاعدة إذن ليست الهدف وانما الهدف هو الدلالة على المعنى . وهكذا نرى الجرجاني قد وقف نفسه للدفاع عن النحو وتبيان خصائصه وارتباطه بنظم الكلام الذي بنى عليه نظريته . والسبب الذي دفعه الى هذا الموقف هو زهد الناس في النحو وانصرافهم عنه ، فهم لا يفهمون من النحو إلاّ ما تعلق بأواخر الكلم من الاعراب . قال : « وأمّا النحو فظننته ضرباً من التكلف وباباً من التعسف وشيئاً لا يستند الى أصل ولا يعتمد فيه على عقل . وان ما زاد منه على معرفة الرفع والنصب وما يتصل بذلك مما تجده في المبادىء فهو فضل لا يجدي نفعاً ولا تحصل منه على فائدة . . »(٣٦) .

وأوضح أهمية النحو فقال : « إذ قد كان علم أنّ الالفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الاعراب هو الذي يفتحها وأنّ الاغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها ، وانّه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه ، والمقياس

(٣٦) دلائل الاعجاز ١٥ .

الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع اليه ، ولا ينكر ذلك إلاّ من ينكر حسّه والاّ من غالط في الحقائق نفسه . واذا كان الأمر كذلك فليت شعري ما عذر من تهاون به وزهد فيه ولم يرّ أن يستسقيه من مصبه ويأخذه من معدنه ، ورضي لنفسه بالنقص والكمال له معرض ، وآثر الغبينة ، وهو يجد الى الربح سبيلاً »(٣٧) .

(٣٧) المصدر نفسه ٣٠ .

النظم وعلم المعاني

ترتبط مسائل النحو التي سبق ذكرها بعلم المعاني ارتباطاً وثيقاً ، ومن هنا قيل : إنّ النظم مجاله النحو البلاغي او البلاغة النحوية ، ومسائل النحو على هذا النمط هي التي يبحثها علم المعاني منذ أن كشف عبدالقاهر الجرجاني عنه النقاب ، وتكاملت لديه نظرية النظم .

وقد ساق عبدالقاهر أمثلة متعددة لجمال التعبير النحوي بالتقديم والتأخير ، والتعريف والتنكير ، والمزاوجة بين كلامين في الشرط والجزاء. وهو ينكر أشد الانكار الكلام إذا نضد بعضه على بعضه دون تنكير في وصل الجمل وفصلها حتى تتكامل صياغتها النحوية . وهذه الفكرة التي انكرها عبدالقاهر نجدها عند ارسطو : « وأمّا اللفظ المتخلخل ، وهو المقطّع مفرداً مفرداً فهو شيء غير لذيذ ، لأنّه لا يتبين فيه الاتصال والانفصال في الحدود التي تتناهى اليها القضايا وغير القضايا أيضاً التي هي مثل النداء والتعجب والسؤال إذا تمت ، فانّ لكل شيء منها حدّاً وطرفاً يجب أن

ينفصل عن غيره بوقفة او نبرة فيعلم ، وإذا كان الكلام مقطّعاً ليس فيه اتصالات وانفصالات لم يلتذّ به »(٣٨) .

ولا شك ان عبدالقاهر وقف على قولة ارسطو.

* ● *

وبعد ذلك نراه يعقد فصولاً يصور فيها نظريته ويبدأ بالتقديم والتأخير لأجزاء الكلام فيقول : «هو باب كثير الفوائد ، جم المحاسن ، واسع التصرف ، بعيد الغاية لا يزال يفترلك عن بديعة ويفضي بك الى لطيفة ... واعلم ان تقديم الشيء على وجهين : تقديم يقال إنّه على نية التأخير وذلك كل شيء اقررته مع التقديم على حكمه الذي كان عليه وفي جنسه الذي كان فيه كخبر المبتدأ اذا قدمته على المبتدأ والمفعول اذا قدمته على الفاعل ... وتقديم لا على نية التأخير ولكن على أن تنقل الشيء عن حكم الى حكم وتجعله باباً غير بابه ، واعراباً غير اعرابه ، وذلك أن تجيء الى اسمين يحتمل كل واحد منهما أن يكون مبتدأ ويكون الآخر خبراً له فتقدم هذا على ذاك وأخرى ذاك على هذا »(٣٩) . ويشير الى

(٣٨) الخطابة ٢٢٢ .

(٣٩) دلائل الاعجاز ٨٢ .

ما قاله سيبويه من انّهم يقدّمون المفعول على الفاعل احياناً اذ كان بيانه أهم لهم ، وهم بشأنه أعنى . ويعيب على النحويين عدم تعمقهم في معرفة أسرار الكلام ودقائقه حيث لا ينظرون في الحذف والتكرار والاظهار والاضمار والفصل والوصل ، ولا في نوع من انواع الفروق والوجوه إلاّ من حيث الاهمية وعدمها ، والطرافة وموضع الندرة في الكلام . ويضيف قائلاً : « واعلم أن من الخطأ أن يقسم الأمر في تقديم الشيء وتأخيره قسمين فيجعل مفيداً في بعض الكلام وغير مفيد في بعض ، وأن يعلل تارة بالعناية واخرى بأنّه توسعة على الشاعر والكاتب ، حتى تطرد لهذا قوافيه ، ولذاك سجعه »(٤٠) . فهو يذهب الى أن التقديم والتأخير في الكلام البليغ لعلل بيانية يقتضيها النظم . ولكي يوضح ذلك درس التقديم والتأخير مع الاستفهام بالهمزة ومع النفي وفي طائفة من العبارات . وذكر أمثلة مختلفة مع همزة الاستفهام ، تارة يليها الفعل وتارة يليها الاسم ، مبيناً ما بينها من دقائق بلاغية . فاذا سألت شاعراً : أانت قلت الشعر ؟ مقدماً الضمير على الفعل كان الشك في قائل الشعر أهو المخاطب أم غيره ، أمّا الشعر فلا شك فيه . وإذا سألته :

(٤٠) المصدر نفسه ٨٥ .

أقلت هذا الشعر ؟ كان الشك في الفعل نفسه وهل نظم الشعر حقّاً أم لم ينظمه . فالتقديم والتأخير لا يأتيان للاهتمام أو للعناية ، وإنّما يأتيان لتحرير المعاني وضبطها .

وبعد أنْ يستطرد كثيراً في الاستفهام يعرض مسائل في النفي فيقول :

« إذا قلت : ما فعلت ، كنت نفيت عنك فعلاً لم يثبت انه مفعول ، واذا قلت : ما أنا فعلت ، كنت نفيت عنك فعلاً ثبت أنّه مفعول »(٤١) .

ويفهم من هذا أنّ تقديم الضمير أفاد تخصيص المسند اليه بنفي الخبر الفعلي ، بينما اثبته لغيره . ويترتب على ذلك انّه لا يصح لقائل انْ يقول : ما انا قلت هذا ولا قاله احد من الناس . لأنّ الجزء الاول من العبارة يثبت أنّ قولاً قيل ، وأنّ المتكلم لم يقله ، بينما الجزء الثاني ينفي أن يكون هذا القول قد قيل . وفي ذلك تناقض .

ومما سبق يتضح أنّ هناك معاني اضافية في تقديم المسند اليه والمفعول ، في الاستفهام أو النفي . وكذلك الشأن في تقديم المسند اليه في الخبر المثبت ، فاذا قلت : فلان قد فعل، وانا فعلت ، وانت فعلت.

(٤١) المصدر نفسه ٩٣ .

اقتضى ذلك ان يكون القصد الى الفاعل ، او تخصيص المسند اليه بالمسند كقولك : انا انقذتك مما وقعت فيه ، مدعياً الانفراد بذلك ، وراداً على من زعم أنّ ذلك كان من غيرك ومزيلاً الاشتباه فيه.

وكل معنى جديد ، وكل فائدة اضافية انما تستفاد من النظم على ذلك النسق .

* ● *

وينتقل عبدالقاهر الى الحذف فيقول : « هو باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فانك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الافادة أزيد للافادة ، وتجدك انطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بياناً اذا لم تبن ... »(٤٢) . ثم يعرض أمثلة من الشعر الجيد لأبيات حذف المبتدأ فيها ، كقول الشاعر(٤٣) :

سأشكر عَمراً إنْ تراخت منيتي
أياديَ لم تُمنن وإنْ هي جلّتِ
فتى غيرُ محجوبِ الغنى عن صديقه
ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلّتِ

(٤٢) دلائل الاعجاز ١٠٤ .

(٤٣) عبدالله بن الزبير الاسدي ونسبت الى غيره (ينظر تفصيل ذلك في شعر عبدالله بن الزبير ١٤١) .

والاصل : هو فتى . يقول : إن النفس تحس في مثل هذا الحذف انساً ، وفي الوقت نفسه قد تستثقل الذكر حتى لكأنما تريد أن تتوقّاه وتتحاماه.

ويمضي فيفصل القول في حذف المفعول قائلاً : إنّه يُحذف حين يريد المتكلم اثبات الفعل للفاعل أو نفيه عنه على الاطلاق دون ملاحظة تخصيصه بمن وقع عليه كالآية الكريمة : (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)(٤٤) أي : هل يستوي من له علم ومن لا علم له . وهذا النوع من الحذف على لونين : لون يُراد فيه أصل الفعل كالآية من غير اشارة الى شيء آخر ، ولون يُراد فيه مفعول خاص ولكنه لا يُذكر لدلالة الحال عليه ، وهو يأتي على صور مختلفة ، منها قول البحتري يمدح الخليفة المعتز بالله ويعرّض بالمستعين :

شَجْوُ حُسّادِهِ وغَيْظُ عِداهُ
أنْ يَرى مُبْصِرٌ ويسمعَ واعِ(٤٥)

اراد : أن يرى مبصر محاسنه ويسمع واع أخباره وأوصافه . ولكنه حذف المفعولين للدلالة على أنّ محاسنه وأخباره بلغت من الشهرة والكثرة

(٤٤) الزمر ٩ .

(٤٥) دلائل الاعجاز ١١٢ . والبيت في ديوان البحتري ١٢٤٤ .

بحيث يمتنع خفاؤها ، إذ اصبحت شغل الاسماع والابصار .

* ● *

ويتحدث بعد ذلك عن فروق صور الخبر او المسند(٤٦) ويرتب هذه الفروق على التعريف والتنكير ، والتقديم والتأخير وغير ذلك من امور النحو . وهو يلاحظ فروقاً واضحة بين أن تقول : زيد منطلق وزيد المنطلق والمنطلق زيد . فالتعبير الاول انما يقال لشخص خالي الذهن عن اي انطلاق قد حدث ، من زيد أو غيره ، والتعبير الثاني يقال لشخص قد علم أن انطلاقا حدث ، ولم يعرف ممن كان ، أمن زيد أم من غيره ، فأنت تعيّن له المنطلق ، والتعبير الثالث يكون حينما ترى انساناً ينطلق بالبعد منك ، ولم تعلم أزيد هو أم عمرو ، فقال لك صاحبك : المنطلق زيد ، أي : هذا الشخص الذي تراه من بُعدٍ هو زيد . وهكذا نرى أن عبدالقاهر كان لا ينظر الى النحو من تلك الزاوية الضيقة التي تهتم بالاعراب فحسب ، بل كان ينظر من زاوية أعم وأشمل .

* ● *

(٤٦) المصدر نفسه ١٢٢ .

ويبحث في الحال ويبين انها تجيء مفردة وجملة ، وانها اذا كانت جملة تجيء تارة بالواو واخرى بغيرها ، ويأخذ في بيان ذلك ملاحظاً انّ الجملة اذا كانت مؤلفة من مبتدأ وخبر فالغالب أن تجيء مع الواو مثل : جاء زيد وعمرو أمامه . واذا كان المبتدأ ضميراً يعود على صاحب الحال تحتم ذكرها مثل : جاءني وهو مبتسم . واذا كان خبر الجملة الاسمية ظرفاً مقدماً أو جاراً ومجروراً مقدّمين كثر فيه ترك الواو كقول بشار(٤٨) :

إذا انكرتني بلدةٌ أو نكرتها
خرجتُ مع البازي عليَّ سوادُ

واذا كانت الجملة فعلية وفعلها مضارع مثبت امتنعت الواو مثل قوله تعالى : (ولا تمنُنْ تستكثر)(٤٩) . واذا كان الفعل مضارعاً منفياً كثر حذفها ، مثل : يصيب ما يدري . ومما يجيء بالواو وغير الواو الماضي مع (قد) وصيغة ليس مثل : اتاني وليس معه كتاب . ويحسن حذفها اذا سبقها حال مفرد .

* ● *

(٤٧) دلائل الاعجاز ١٤٢ .
(٤٨) ديوانه ٤٩/٣ .
(٤٩) المدثر ٦ .

وينتقل الى الفصل والوصل بين الجمل فيقول :
« أعلم أنّ العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة ، تستأنف واحدة منها بعد أخرى ، من أسرار البلاغة ، ومما لا يأتي لتمام الصواب فيه الاّ الاعراب الخلص ، والاقوام طبعوا على البلاغة ، وأوتوا فنّاً من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد . وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنهم جعلوه حدّاً للبلاغة لغموضه ودقّة مسلكه »(٥٠) .

وبعد ذلك يبدأ ببيان فائدة العطف في المفرد وانّه يعود الى اشراك الثاني في اعراب الاول وحكمه، ثم يأخذ في درس الجمل المتعاطفة ، قائلاً : إن الاولى اذا كان لها موضع من الاعراب كان حكمها حكم المفرد ، ومثلها الثانية ، واذن فالواو ضرورية ، لأن الجملتين تجريان مجرى عطف المفرد على المفرد. أمّا اذا لم يكن للاولى محل من الاعراب فانّ المسألة تصبح مشكلة حين نريد أن نعرف متى نصل بالواو ومتى نفصل . على انّه ينبغي أن نعرف اننا لا نعطف جملة على جملة إلاّ اذا كان بينهما مناسبة ، وهي تشتد في عطف الجمل ذات المحل مثل : هو

(٥٠) دلائل الاعجاز ١٥٤ .

يضر وينفع . وان لم يكن بين الجملتين مناسبة قطعتَ واستأنفتَ(٥١) .

وينتهي عبدالقاهر في شأن فصل الجمل ووصلها الى انّها على ثلاثة اضرب : « جملة حالها مع التي قبلها حال الصفة مع الموصوف ، والتأكيد مع المؤكد ، فلا يكون العطف فيها البتة ، لشبه العطف فيها لو عطفت بعطف الشيء على نفسه .

وجملة حالها مع التي قبلها حال الاسم يكون غير الذي قبله إلاّ انّه يشاركه في حكم ويدخل معه في معنى ، مثل أن يكون كلا الاسمين فاعلاً أو مفعولاً أو مضافاً اليه فيكون حقها العطف . وجملة ليست في شيء من الحالين بل سبيلها مع التي قبلها سبيل الاسم مع الاسم لا يكون منه في شيء فلا يكون إياه ولا مشاركاً له في معنى ، بل هو شيء ان ذكر لم يذكر إلاّ بأمر ينفرد به ، ويكون ذكر الذي قبله وترك الذكر سواء في حاله لعدم التعلق بينه وبينه رأساً ، وحق هذا ترك العطف البتة . فترك العطف يكون إمّا للاتصال الى الغاية ، أو الانفصال الى الغاية والعطف لما هو واسطة بين الأمرين ، وكان له حال بين حالين »(٥٢) .

(٥١) البلاغة تطور وتاريخ ١٧٨ .

(٥٢) دلائل الاعجاز ١٦٧ .

ولا شك أنّ هذا الباب الذي عقده يؤكد العلاقة بين النحو والنظم ، ولذلك يجب مراعاة الفصل والوصل في الكلام ، فاذا وضع أحدهما موضع الآخر فسد النظم وانحرف المعنى .

* ● *

ويتحدث عبدالقاهر باسهاب عن صور القصر ويبدأ بالحديث عن (إنما)(٥٣) وما يقوله بعض النحاة من انّها بمعنى (ما وإلاّ) ويأخذ في بيان الفروق بين الصيغتين . وأول فرق يذكره هو أنّ (إنما) لا تتضمن نفياً بخلاف (ما وإلاّ) . والفرق الثاني انّ (انما) تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته أو لماينزّل منزلته مثل : (إنما انت منذرُ من يخشاها)(٥٤) ، ومثل قول الشاعر(٥٥) :

إنما مصعَبٌ شهاب من الله
تجلت عن وجهه الظلماء

وأمّا (ما وإلاّ) فيأتيان في خبر ينكره المخاطب ويشك فيه ، كقولك لشخص : ما انت إلاّ مخطىء. والفرق الثالث هو أنّ (انما) تفيد ايجاب الفعل

(٥٣) المصدر نفسه ٢٢٣ .
(٥٤) النازعات ٤٥ .

لشيء ونفيه عن غيره ، فاذا قلت : انما جاءني زيد ، تضمن ذلك أنك نفيت أن يكون الجائي غيره ، فكأنك قلت : جاءني زيد لا عمرو . وهنا يستطرد عبدالقاهر لبيان القصر بلا العاطفة ، ويقول : إن قولك الآنف تقصر فيه المجيء على زيد وتنفيه عن عمرو ، وبذلك تعكس ظن المخاطب وما كان يعتقده من أنّ الذي جاء عمرو لا زيد . وهذا نفسه يثبته لانما في مثل : إنما الجائي زيد ، أي : لا عمرو . ويلاحظ أنّ القصر يتسلط على ما بعد (إلاّ) كما يتسلط على المتأخر بعد (انّما) ، وأنّه تارة يكون قصر صفة على موصوف وتارة قصر موصوف على صفة ، وأنّه يقع على المتأخر سواء كان مسنداً أو مسنداً اليه او مفعولاً . ويقول : إن لك أن تقول : انما محمد قائم لا قاعد ، وليس لك أن تقول : ما محمد إلاّ قائم لا قاعد ، كأنّ القصر في النفي والاستثناء أقوى منه في (انما) لاشتماله على النفي الشامل . ويلاحظ ان (انما) تستخدم في التعريض كثيرا مثل : (انما يتذكر أولو الألباب)(٥٦) . ويؤكد أنها على خبر معلوم للمخاطب حقيقة أو تنزيلاً(٥٧) .

* ● *

(٥٥) عبيد الله بن قيس الرقيات ، ديوانه ٩١ .
(٥٦) الزمر ٩ .
(٥٧) البلاغة تطور وتاريخ ١٨٢ .

نخلص من كل ما سبق أن عبدالقاهر استطاع في كتابه (دلائل الاعجاز) أن يفسر نظرية النظم تفسيراً ردّها فيه الى المعاني الثانية أو الى المعاني الاضافية التي تلتمس في ترتيب الكلام حسب مضامينه ودلالاته في النفس ، وهي معان ترجع الى الاسناد وخصائص مختلفة في المسند اليه والمسند وفي اضرب الخبر وفي متعلقات الفعل من مفعولات وأحوال ، وفي الفصل والوصل وفي القصر وفي الايجاز والاطناب . وهي نفسها الابواب التي الّف منها من خلفوه علم المعاني . ونجد في كتابات من سبقوه بعض ملاحظات ومصطلحات غير أنّ هذا ينبغي أن لا يضللنا فنغمطه حقّه ونزعم أنّه انما جمع ملاحظات سابقيه ، فالحق أنه ابتكر هذه النظرية . ولا يكفي أن يكون هناك من تحدثوا عن باب الفصل كله في شكل ملاحظات تنشر هنا وهناك شيء ، وضمها الى نظرية متشعبة شيء آخر . نظرية نشأ عنها فيما بعد علم مستقل من علوم البلاغة هو علم المعاني الذي وضع عبدالقاهر أصوله وصوّر فصوله وحدودها وشعبها تصويراً دقيقاً(٥٨) .

---

(٥٨) المصدر نفسه ١٨٩ .

النظم وعلم البيان

البيان عند عبدالقاهر مصطلح عام يشمل البلاغة كلها فلم يكن يقسم البلاغة هذا التقسيم الذي انتهت اليه عند اللاحقين عليه ، وهي المعاني والبيان والبديع ، ولكنه كان يسمي مباحثه في (دلائل الاعجاز) علم البيان تارة والفصاحة تارة اخرى ، كما كان يشير الى أنّ الاستعارة من البديع .

وقد عرض عبدالقاهر للصور البيانية لا ليبحثها بحثاً بلاغياً مفصلاً ، ولكن ليطبق عليها فكرة النظم ومعانيه الاضافية ، ونوّه في مقدمة كتابه (دلائل الاعجاز) بعلم البيان ، قال : « ثم إنّك لا ترى علماً هو أرسخُ أصلاً ، وأبسق فرعاً ، وأحلى جنى ، وأعذب ورداً ، وأكرم نتاجاً ، وانور سراجاً ، من علم البيان .. »(٥٩) . ودافع عنه وأرجع اليه مزية الكلام ، قال : « إلاّ انّك لن ترى على ذلك نوعاً من العلم قد لقي من الضيم مالقيه ، ومني من الحيف بما مني به ، ودخل على الناس من

---

(٥٩) دلائل الاعجاز ١٣ .

الغلط في معناه ما دخل عليهم فيه ، فقد سبقت الى نفوسهم اعتقادات فاسدة ، وظنون ردية ، وركبهم فيه جهل عظيم ، وخطأ فاحش ..»(٦٠) . وقال : « وأول ذلك واولاه ، وأحقه بأن يستوفيه النظر ويتقصاه،القول على التشبيه والتمثيل والاستعارة، فانّ هذه اصول كبيرة كان جُلّ محاسن الكلام - إن لم نقل كلها - متفرعة عنها ، وراجعة اليها ، وكأنّها أقطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها ، واقطار تحيط بها من جهاتها ، ولا يقنع طالب التحقيق أن يقتصر فيها على أمثلة تُذكر ، ونظائر تُعدّ ..»(٦١) .

والصور البيانية التي تحدث عنها عبدالقاهر هي الكناية والاستعارة والتشبيه والتمثيل والمجاز ، وسنقف عند هذه الالوان البيانية لنرى مدى صلتها بفكرة النظم .

* ● *

المراد بالكناية عند الجرجاني « أنْ يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء الى معنى هو

(٦٠) المصدر نفسه ١٤ .
(٦١) أسرار البلاغة ٢٦ .

تاليه وردفه في الوجود فيومىء اليه ، ويجعله دليلاً عليه ، مثال ذلك قولهم : (هو طويل النجاد) يريدون طويل القامة ، و (كثير رماد القدر) يعنون كثير القِرى . وفي المرأة (نؤوم الضحى) والمراد انّها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها ، فقد ارادوا في هذا كله كما ترى معنى ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به ولكنهم توصلوا اليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردفه في الوجود . وأن يكون إذا كان ، أفلا ترى أنّ القامة اذا طالت طال النجاد ، واذا كثر القرى كثر رماد القدر،واذا كانت المرأة مترفة لها من يكفيها أمرها ردف ذلك أن تنام الى الضحى »(٦٢) .

وقال أيضاً : « قد اجمع الجميع على أنّ الكناية أبلغ من الافصاح ، والتعريض أوقع من التصريح » وأضاف : « تفسير هذا أن ليس المعنى اذا قلنا : إنّ الكناية أبلغ من التصريح ، انّك لما كنيت عن المعنى زدت في ذاته بل المعنى انّك زدت في إثباته فجعلته أبلغ وآكد وأشد . فليست المزية في قولهم : (جمّ الرماد) انّه دلّ على قرى اكثر بل انّك أثبت له القرى الكثير من وجه هو أبلغ وأوجبته ايجاباً هو أشد ، وادعيته دعوى انت بها أنطقُ ، وبصحتها أوثق »(٦٣) .

(٦٢) دلائل الاعجاز ٥٣ .

ومن هذا يتبين انّ اللفظ في الكناية يدلّ على معنى ، وانّ هذا المعنى يدل على المعنى المـراد من الكناية ، فهي من دلالات المعاني على المعاني .

فالكناية البليغة هي تلك التي ينتقل فيهـا الانسان من المعنى الى معنى المعنى في طريق ممهد ، لا يتعثر فيه ، ولا يغلق أمامه ، كقول العباس بن الاحنف(٦٤) :

سأطلبُ بُعدَ الدارِ عنكـم لتقربوا
وتسكبُ عيناي الدمـوع لتجمـدا

« فدلّ بسكب الدموع على ما يوجبه الفراق من الحزن والكمد ، فأحسن وأصاب ، لأنّ من شأن البكاء ابداً أن يكون أمارة للحزن ، وأنْ يجعل دلالة عليه وكناية عنه ، فالتمس أن يدلّ على ما يوجبه دوام التلاقي من السرور بقوله (لتجمدا) وظنّ أنّ الجمود يبلغ له في إفادة المسرة والسلامة من الحزن ما بلغ سكب الدمع في الدلالة على الكآبة والوقوع في الحزن ، ونظر الى أنّ الجمود خلو العين من البكاء وانتفاء الدموع عنها وانّه إذا قال (لتجمدا) فكأنّه قال : أحزن اليوم لئلا احزن غداً وتبكي عينـاي

(٦٣) المصدر نفسه ٥٦ ـ ٥٧ .
(٦٤) ديوانه ١٠٦ .

جهدهما لئلا تبكيا ابداً . وغلط فيما ظن ، وذاك أن الجمود هو ان لا تبكي العين مع أنّ الحال حال بكاء ومع أنّ العين يراد منها أن تبكي ويشتكى من أن لا تبكي ، ولذلك لا ترى أحداً يذكر عينه بالجمـود إلاّ وهو يشكوها ويذمها وينسبها الى البخل ... ولو كان الجمود يصلح لأنْ يراد به السلامة مـن البكاء ، ويصح أنْ يدلّ به على أنّ الحال حـال مسرة وحبور ، لجاز أن يُدعى به للرجل فيقال : لا زالت عينك جامدة ، كما يقال : لا أبكى الله عينك ، وذاك مما لا يشك في بطلانه » .

فالمعنى الاول « منقوص القوة في تأدية ما أريد منه لأنّه يعترضه ما يمنعه أنْ يقضي حق السفارة فيما بينك وبين معناك »(٦٥) .

قال عبدالقاهر : « .. أنّ من شرط البلاغـة أن يكون المعنى الاول الذي تجعله دليلاً على المعنى الثاني ووسيطاً بينك وبينـه متمكناً في دلالتـه ، مستقلاً بوساطته يسفر بينك وبينه أحسن سفارة، ويشير لك إليه أبين اشارة ، حتى يخيل اليك انك فهمته من حاقّ(٦٦) اللفظ وذلك لقلة الكلفة فيـه

(٦٥) دلائل الاعجاز ١٨٤ ـ ١٨٥ .
(٦٦) أي وسطه وصميمه .

عليك ، وسرعة وصوله اليك ، فكان من الكناية مثل قوله(٦٧) :

لا أُمتِعُ العُوذَ بالفِصالِ ولا
أَبتاعُ إلاّ قريبةَ الأجَلِ »(٦٨)

فمعنى الجملة الاولى انّه لا يترك الفصيل لأمه تستمتع به ، أي انّه يذبحه لاضيافه ، وهذا المعنى يؤدي بك في يسر الى أنّه كريم ، يذبح النوق للضيفان ، ودلالة المعنى الاول على المعنى الثاني بيّنة لاخفاء بها .

ومعنى الجملة الثانية في البيت انّه لا يشتري إلاّ الناقة القريبة الأجل ، التي تذبح بعد شرائها للضيفان ، وذلك يدل على كرم الرجل ، وهو المعنى المراد ، وكانت دلالة المعنى الاول عليه دلالة بيّنة لا غموض فيها .

والكناية واسعة متشعبة ، تحدث عنها السابقون ولكنهم لم يستطيعوا أن يقسموها كما قسمها عبدالقاهر ، فقد تحدث عن الكناية عن صفة وضرب لها مثلاً بقولهم : (هو طويل النجاد) و (كثير رماد القدر) و (نؤوم الضحى) كما سبق .

---

(٦٧) البيت لابن هرمة في ديوانه ١٨٣ .
(٦٨) دلائل الاعجاز ١٨٣ .

وتحدث عن الكناية عن نسبة ، وهذا النوع من ابتداعه ، لأنّ السابقين لم يتحدثوا عنه في فصل الكناية ، قال الدكتور مصطفى ناصف : « يرجع اليه كشف نوع من الكناية عن النسبة ، ولم يكن السابقون يعرفون للكناية ضروباً »(٦٩) .

قال عبدالقاهر : « .. انهم يرومون وصف الرجل ومدحه وإثبات معنى من المعاني الشريفة له فيدعون التصريح بذلك ويكنون عن جعلها فيه بجعلها في شيء يشتمل عليه ويلتبس به ... ومثاله قول زياد الأعجم(٧٠) :

إنّ السماحةَ والمروءةَ والندى
في قبّةٍ ضُرِبَتْ على ابن الحشرجِ

أراد كما لا يخفى أن يثبت هذه المعاني والاوصاف خلالاً للممدوح وضرائب فيه فترك أن يصرح وعدل الى ما ترى من الكناية والتلويح فجعل كونها في القبة المضروبة عليه عبارة عن كونها فيه واشارة اليه فخرج كلامه بذلك الى ما خرج اليه من الجزالة »(٧١) .

---

(٦٩) الصورة الادبية ١١٢ .
(٧٠) كانت فيه لكنه فسمي الاعجم ، ت نحو ١٠٠ هـ . (الشعر والشعراء ٤٣٠ ، الخزانة ١٩٢/٤) .
(٧١) دلائل الاعجاز ٢٠٩ .

وقال : « ومما هو اثبات للصفة على طريق الكناية والتعريض قولهم : (المجد بين ثوبيه والكرم في برديه) . وذلك أنّ قائل هذا يتوصل الى اثبات المجد والكرم للممدوح بأن يجعلهما في ثوبه الذي يلبسه كما توصل زياد الى اثبات السماحة والمروءة والندى لابن الحشرج بأن جعلها في القبة التي هو جالس فيها »(٧٢) .

وفصاحة الكناية عند عبدالقاهر عقلية او معنوية لا لفظية ، قال : « وإذ قد عرفت هذه الجملة فينبغي أن تنظر الى هذه المعاني واحداً واحداً وتعرف محصولها وحقائقها وأن تنظر أولاً الى الكناية ، وإذا نظرت اليها وجدت حقيقتها ومحصول أمرها أنّها اثبات لمعنى أنت تعرف ذلك المعنى من طريق المعقول دون طريق اللفظ »(٧٣) .

وقال : « أنّه لا يكنى باللفظ عن اللفظ وأنّه إنما يكنى بالمعنى عن المعنى »(٧٤) .

ولذلك ربط الجرجاني الكناية بوجوه النظم .

* ● *

---

(٧٢) المصدر نفسه ٢١١ .
(٧٣) دلائل الاعجاز ٢٨٠ .
(٧٤) المصدر نفسه ٢٨٧ .

امّا الاستعارة فقد عرّفها عبدالقاهر : « الاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره وتجيء الى اسم المشبّه به فتعيره المشبّه وتجريه عليه »(٧٥) .

ولسنا بحاجة هنا الى التحدث عن الاستعارة واقسامها وانما الذي يهمنا هو صورة الاستعارة وجمال تركيبها وصلة ذلك بالنظم .

فالاستعارة عنده ليست من صفة اللفظ بل يشار بها الى المعنى ، قال : « ولو كان اللفظ الوصف بالاستعارة بمجرد النقل لجاز أن توصف الاسماء المنقولة من الاجناس الى الاعلام بأنّها مستعارة فيقال حجرٌ مستعار في اسم الرجل ، ولزم كذلك في الفعل المنقول نحو يزيد ويشكر ، وفي الصوت نحو (بَبَّه) في قوله(٧٦) :

لأنكِحَنَّ بَبَّه — جاريةً خِدَبَّه
مُكْرَمَةً مُحبَّه — تجبُّ أهلَ الكَعْبَه

---

(٧٥) المصدر نفسه ٥٤ .
(٧٦) الابيات لام عبدالله بن الحارث الذي يقال له ببة لكثرة لحمه ، وهو لقب لقبته به أمه وكانت ترقصه وتقول هذه الابيات (الاشتقاق ٧٠) . وخدبة : عظيمة ضخمة، وتجب : تغلبهن حسنا .

وذلك ارتكاب قبيح وفرط تعصب على الصواب . ويلوح ههنا شيء وهو إنا وان جعلنا الاستعارة من صفة اللفظ فقلنا (اسم مستعار) و « هذا اللفظ استعارة ههنا وحقيقة هناك) فانّا على ذلك نشير بها الى المعنى من حيث قصدنا باستعارة الاسم أن نثبت أخصّ معانيه للمستعار له .

يدلك على ذلك قولنا : جعله أسداً وجعله بدراً وجعل للشمال يداً ، فلولا ان استعارة الاسم للشيء تتضمن استعارة معناه له لما كان لهذا الكلام معنىً لأنّ (جعل) لا يصلح إلاّ حيث يراد اثبات صفة للشيء ، كقولنا : « جعله أميراً وجعله لِصّاً) تريد انّه أثبت له الامارة واللصوصية »(٧٧) .

وكرّر الجرجاني أنّ الفصاحة في الاستعارة عقلية أو معنوية لا لفظية ، وأنّ اللفظ لا يستعار مجرداً عن المعنى ، وأنّ الفضل للمعاني والاستعارات والصور لا للالفاظ ، وأنّ الحسن والقبح في الاستعارة يأتي من جهة المعاني خاصة من غير أنْ يكون للالفاظ في ذلك نصيب أو يكون لها في التحسين أو خلافه تصعيد وتصويب ، وأنّ جمال

(٧٧) أسرار البلاغة ٣٧٤ ـ ٧٥ .

الاستعارة راجع الى التركيب النحوي وحسن الصياغة والتأليف .

وعبدالقاهر في كل ذلك مرتبط بفكرته في النظم لا يخرج عنها في الصور البيانية .

* ● *

أمّا التشبيه والتمثيل فقد فصّل عبدالقاهر القول فيهما واستطاع بموهبته وذوقه أن يفرق بينهما ويضع حدوداً تفصل بين لون وآخر .

قال : « اعلم أنّ الشيئين إذا شُبّه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين : أحدهما أن يكون من جهة أمرٍ بيّن لا يحتاج فيه الى تأوّل ، والآخر أن يكون الشبه محصّلاً بضرب من التأوّل »(٧٨) .

فالنوع الاول هو التشبيه والثاني هو التمثيل . فمثال الاول تشبيه الشيء بالشيء من جهة الصورة واللون نحو أن يشبّه الشيء إذا استدار بالكرة ، وكالتشبيه من جهة اللون كتشبيه الخدود بالورد والشعر بالليل ... الخ . فالشبه في ذلك كله لا يجرى فيه التأوّل ولا يُفتقر اليه في تحصيله . « ومثال الثاني كقولك : « هذه حُجّةٌ

(٧٨) المصدر نفسه ٨٠ ـ ٨١ .

كالشمس في الظهور) وقد شبّهت الحجة بالشمس من جهة ظهورها كما شبّهت فيما مضى الشيء بالشيء من جهة ما أردت من لون أو صورة أو غيرهما . إلاّ انّك تعلم أن هذا التشبيه لا يتمّ لك إلاّ بتأوّل ، وذلك أن تقول : حقيقة ظهور الشمس وغيرها من الاجسام أن لا يكون دونهما حجاب ونحوه مما يحول بين العين وبين رؤيتها ، ولذلك يظهر الشيء لك ، ولا يظهر لك ، إذا كنت من وراء حجاب أو لم يكن بينك وبينه ذلك الحجاب ، ثم تقول أن الشُبهة نظير الحجاب فيما يُدرك بالعقول لأنّها تمنع القلب رؤية ما هي شُبهة فيه كما يمنع الحجاب العين أن ترى ما هو من ورائه »(٧٩) .

وقال : « وإذ قد عرفت الفرق بين الضربين فاعلم أنّ التشبيه عامّ والتمثيل أخصّ منه ، فكل تمثيل تشبيه وليس كلّ تشبيه تمثيلاً »(٨٠) .

وعبدالقاهر لا يفصل بين نظرية النظم والتشبيه فهو يرى أن بعض التشبيهات إذا غيرت أو أصابها التقديم والتأخير فقدت كثيراً من مزاياها . ولعل تعليقه على بيت بشار(٨١) :

(٧٩) أسرار البلاغة ٨٢ .
(٨٠) المصدر نفسه ٨٤ .
(٨١) ديوانه ٣١٨/١ .

كأنّ مثارَ النقعِ فوقَ رؤوسنا
واسيافَنا ليلٌ تهاوى كواكبه

خير مثال على ذلك . قال : « فبيت بشار إذا تأملته وجدته كالحلقة المفرغة التي لا تقبل التقسيم، ورايته قد صنع في الكلم التي فيه ما يصنعه الصانع حين يأخذ كسراً من الذهب فيذيبها ثم يصبها في قالب ويخرجها لك سواراً أو خلخالاً ، وإن أنت حاولت قطع بعض الفاظ البيت عن بعض كنت كمن يكسر الحلقة ويفصم السوار ، وذلك انّه لم يرد أنْ يشبه النقع بالليل على حدة ، والاسياف بالكواكب على حدة ، ولكنه أراد أن يشبّه النقع والاسياف تجول فيه بالليل في ما تنكدر(٨٢) الكواكب وتتهاوى فيه . فالمفهوم من الجميع مفهوم واحد والبيت من اوله الى آخره كلام واحد . . . فقد أراك ذلك ـ إن لم تكابر عقلك ـ أنّ النظم يكون في معاني الكلم دون الفاظها ، وأنّ نظمها هو توخي معاني النحو فيها »(٨٣) .

* ● *

(٨٢) تنكدر : تتساقط .
(٨٣) دلائل الاعجاز ٢٦٩ ـ ٢٧١ .

وفيما يخص المجاز فقد قسمه على قسمين : عقلي ولغوي ، سمّى العقلي في دلائل الاعجاز (المجاز الحكمي) وقال عنه : « وهو أن يكون التجوز في حكم يجري على الكلمة فقط ، وتكون الكلمة متروكة على ظاهرها ، ويكون معناها مقصوداً في نفسه ومراداً من غير تورية ولا تعريض »(٨٤) .

ولم يقبل عبدالقاهر ما ذهب اليه بعضهم من أنّ المجاز لون واحد ، وبذلك كان أوّل من ميّز بين هذين النوعين ، وعُدّ مبتكراً للمجاز العقلي(٨٥) .

وقد مثّل عبدالقاهر للمجاز الحكمي (العقلي) بقولهم : نهارك صائم وليلك قائم ، ونام ليلي وتجلّى همي ، وقوله تعالى : (فما ربحت تجارتهم)(*) .

قال : « أنت ترى مجازاً في هذا كله ولكن لا في ذوات الكلم وأنفس الالفاظ ، ولكن في أحكام أُجريت عليها ، أفلا ترى أنّك لم تتجوز في قولك : نهارك صائم وليلك قائم في نفس صائم وقائم ولكن في أن أجريتهما خبرين على النهار والليل . وكذلك ليس المجاز في الآية في لفظة (ربحت) نفسها ولكن في

(٨٤) المصدر نفسه ٢٠٠ .

(٨٥) عبدالقاهر الجرجاني بلاغته ونقده : ١٤١ .

(*) البقرة ١٦ .

اسنادها الى التجارة ... أفلا ترى انك لا ترى شيئاً منها إلاّ وقد أريد به معناه الذي وضع له على وجهه وحقيقته ، فلم يرد بصائم غير الصوم ولا بقائم غير القيام ولا بربحت غير الربح »(٨٦) .

وقال : « واعلم أنّ من سبب اللطف في ذلك انّه ليس كل شيء يصلح لأن يتعاطى فيه هذا المجاز الحكمي بسهولة بل تجدك في كثير من الأمر وانت تحتاج الى أن تهيىء الشيء وتصلحه لذلك بشيء تتوخاه في النظم »(٨٧) .

أما المجاز اللغوي فليس نوعاً واحداً بل له أساليب ، وأوضح ألوانه الاستعارة والمجاز المرسل ، قال : « واعلم أن المجاز على ضربين : مجاز من طريق اللغة ومجاز من طريق المعنى والمعقول ، فاذا وصفنا بالمجاز الكلمة المفردة كقولنا (اليد مجاز في النعمة) و (الأسد مجاز في الانسان وكل ما ليس بالسبع المعروف) كان حكماً أجريناه على ما جرى عليه من طريق اللغة ، لأنا أردنا أنّ المتكلم قد جاز باللفظة أصلها الذي وقعت له ابتداء في اللغة واوقعها على غير ذلك إمّا تشبيهاً وامّا لصلة وملابسة بين ما نقلها اليه وما نقلها عنه »(٨٨) .

(٨٦) دلائل الاعجاز ٢٠١ .

(٨٧) نفسه ٢٠٤ .

(٨٨) أسرار البلاغة ٣٧٦ .

والمجاز اللغوي اعمّ من الاستعارة ، وكل استعارة مجاز لغوي ، وليس كل مجاز لغوي استعارة(٨٩) ، لأنّ الاستعارة نقل الاسم عن أصله الى غيره للتشبيه على حد المبالغة . أمّا المجاز اللغوي فمنه الاستعارة المبنية على التشبيه ، ومنه ما لا يبنى على التشبيه ، فان كان مبنياً على التشبيه فهو استعارة ، وإن لم يكن مبنياً على التشبيه فهو المجاز المرسل ، أي الذي لا يقيَّد بقيد . وقد أطال عبدالقاهر في الحديث عن الفروق بين الألوان(٩٠) .

ومن هذا نلاحظ أنّ كلاً من المجازين لا يدرك إلاّ في التركيب ، ووراء كلّ منهما معان غير ما يفهم من تكوين الجملة النحوي وهما بالتالي يندرجان في النظم ، وعبدالقاهر في ذلك يظل متمسكاً بنظريته في نظم الكلام إذ أرجع اليها الصور البيانية ، فقال : « انّ هذه المعاني هي الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من بعدها من مقتضيات النظم وعنها يحدث وبها يكون ، لأنّه لا يتصور أنْ يدخل شيء منها في الكلم وهي أفراد لم يتوخ فيما بينها حكم من أحكام النحو » .

---

(٨٩) نفسه ٣٦٨ .

(٩٠) ينظر اسرار البلاغة ٣٢٦ ، ٣٦٥ – ٣٦٧ ، ٣٧١ .

النظم وعلم البديع

أكد عبدالقاهر في جميع ما كتبه على أنّ البلاغة ترجع الى المعنى ، وأنّ الالفاظ تبع للمعاني، وهي تترتب في النفس على حسب ترتيب المعاني في النفس ، فخير طريقة للنتاج الادبي عنده هي أن تنطلق المعاني انطلاقاً لا تكلف فيه ولا غموض ولا التواء حيث تقع على ما يليق بها من الالفاظ فتلبسها متمكنة منها مهما اختلفت الاساليب وتعددت ألوان التعبير .

وللبرهنة على صحة دعواه عرض عبدالقاهر لألوان من البديع يبعد عنها صفة اللفظية المحضة ويقنع بأنّها تطرد مع منهجه المعنوي الذي يستقيم وفكرة النظم ، وأكثر من الحديث عن التجنيس والسجع لما يوهمه كل منهما من اللفظية الواضحة .

قال : « أما التجنيس فانك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلاّ اذا كان موقع معنييهما من العقل موقعاً حميداً ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً ، أتراك استضعفت تجنيس أبي تمام في قوله :

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت
فيه الظنون أمَذْهَب أم مُذْهَب(٩١)

واستحسنت قول المحدَث :

ناظِراه فيما جنى ناظِراه
أودعاني أمُتْ بما أودعاني(٩٢)

لأمر يرجع الى اللفظ ؟ أم لانك رأيت الفائدة ضعفت عن الاول وقويت في الثاني ؟ ورأيتك لم يزدك بمَذهب ومُذهب على أن أسمعك حروفاً مكررة ، تروم لها فائدة فلا تجدها إلا مجهولة منكرة ، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها . فقد تبين لك أن ما يعطى التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى ، اذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه الا مستحسن ، ولما وُجد فيه معيب مستهجن .

ولذلك ذُمّ الاستكثار منه والولوع به ، وذلك أن المعاني لا تدين في كل موضع لما يجذبها التجنيس اليه إذ الالفاظ خَدَمُ المعاني والمُصرفة في حكمها ، وكانت المعاني هي المالكة سياستها ،

(٩١) ديوانه ١/١٢٩ .
(٩٢) اختلف في نسبته ، ينظر هامش محقق الاسرار ٧ .

المستحقة طاعتها ، فمَن نصر اللفظ على المعنى كان كمن ازال الشيء عن جهته ، وأحاله عن طبيعته، وذلك مظنة من الاستكراه ، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين ، ولهذه الحالة كان كلام المتقدمين الذين تركوا فضل العناية بالسجع ، ولزموا سجية الطبع ، أمكن في العقول ، وأبعد من القلق ، وأوضح للمراد ، وافضل عند ذوي التحصيل ، واسلم من التفاوت، واكشف عن الاغراض ، وانصر للجهة التي تنحو نحو العقل ، وأبعد من التعمد الذي هو ضرب من الخداع بالتزويق ... »(٩٣) .

وصرح عبدالقاهر بأن العارفين بجواهر الكلام لا يعرجون على هذا الفن إلا بعد الثقة بسلامة المعنى وصحته ، واستشهد بخطبة الجاحظ في أول كتابه الحيوان : « جنبك الله الشبهة ، وعصمك من الحيرة ... » فقال : « وعلى الجملة فانك لا تجد تجنيساً مقبولاً ، ولا سجعاً حسناً ، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه ، وحتى تجده لا تبتغي به بدلاً ، ولا تجد عنل حِولاً ، ومن ههنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه ، واحقه بالحسن وأولاه ، ما وقع من غير قصد من المتكلم الى اجتلابه ، وتأهب لطلبه .. »(٩٤) .

(٩٣) أسرار البلاغة ٧ – ٨ .
(٩٤) نفسه ١٠ .

ولابد من الاشارة اخيراً الى انّ البديع لم يشغل عبدالقاهر إلاّ بما يتعلق بنظرية النظم ولذلك وقف عند بعض الوانه ولم يتحدث عنه كما تحدث الآخرون .

النظم وفكرة الاعجاز

العجز لغة : الضعف ، وهو ضد القدرة ، واعجزه الشيء فاته ، واعجزت فلاناً وعجّزته جعلته عاجزاً . ومصدر اعجز : الاعجاز ، ومنه اشتقت كلمة « مُعْجِزَة » وهي واحدة (معجزات) الانبياء التي تؤيد بها نبوتهم(٩٥) . وقد صار لها هذا المعنى في زمن متأخر عن الرسالة . « والمعجزة أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدي ، سالم من المعارضة»(٩٦) .

وقد شغلت مسألة الاعجاز المسلمين وكان علماء الاعتزال أكثر المثيرين للكلام فيها ، واهتموا بالتأليف في الاعجاز ، ولابدّ أن نلقي نظرة سريعة على تاريخ هذه الفكرة حسب القرون لنقف على تطورها ، وسنبدأ بالقرن الثالث الهجري إذ لم تصل الينا آثار مدونة في اعجاز القرآن مؤيدة أو منكرة في القرنين الاول والثاني ، وهذا لا يعني عدم حدوث جدل في هذا الراي بين المسلمين وغيرهم ،

(٩٥) اللسان (عجز) .
(٩٦) التعريفات ١٩٥ ، الاتقان ٣/٤ .

فقد اتهم بالزندقة في القرن الثاني كثيرون ومنهم ابن المقفع الذي نسب اليه انّه عارض القرآن ، واول من اتهمه بذلك القاسم بن ابراهيم الرازي (ت ٢٤٦ هـ) فقد الّف رسالة (الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع) . وقد رفض الرافعي هذا الاتهام وتهكم بمن نسبوا معارضة القرآن الى ابن المقفع(٩٧) .

* ● *

القرن الثالث الهجري

بدأ الكلام في الاعجاز في هذا القرن بصورة منظمة إذ كان هذا العهد عهد ترجمة واتصال بالثقافات الاجنبية ولا سيما اليونانية ، وظهرت المعتزلة وقد ذهب ابراهيم النظام (ت ٢٣١ هـ) من بينهم الى أن القرآن معجز بالصّرفة اي انّ الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها فكان هذا الصرف خارقاً للعادة(٩٨) .

وأنكر عيسى بن صبيح المردار (ت نحو ٢٢٦ هـ) الاعجاز وقال : إنّ الناس قادرون على مثل القرآن فصاحة ونظماً وبلاغة(٩٩) .

(٩٧) اعجاز القرآن ٢٠٢ .

(٩٨) مقالات الاسلاميين ١/٢٧١ ، الملل والنحل ١/٥٦ .

والف الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) كتاباً في اعجاز القرآن من جهة النظم سماه (نظم القرآن) وردّ على النظام رايه في الصّرفة(١٠٠) .

وفي هذا القرن ظهر ابن الراوندي (ت ٢٩٣هـ) فأنكر الاعجاز والف كتاباً في معارضة القرآن سماه (التاج)(١٠١) وكتاباً في الطعن عليه سماه (الدافع) . وقد انبرى للرد عليه ابن الخياط (ت ٣٠٠ هـ) في كتابه (الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد) .

والف محمد بن عمر بن سعيد الباهلي البصري (ت ٣٠٠ هـ) كتاباً سماه (اعجاز القرآن)(١٠٢) ولم يصل الينا . وهو أول كتاب يشتمل على كلمة الاعجاز .

* ● *

القرن الرابع الهجري

سبق أن ذكرنا انّ الواسطي الف كتاباً في اعجاز القرآن وأن الطبري المفسر تحدث عن الاعجاز .

(٩٩) الفرق بين الفرق ١٦٥ .

(١٠٠) حجج النبوة ١٤٨ .

(١٠١) الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد ١١ .

(١٠٢) طبقات المفسرين ٢/٢١٧ .

ومن بحث في الاعجاز في هذا القرن ابو الحسن الاشعري[١٠٣] (ت ٣٣٠ هـ) والقمي المفسر[١٠٤] (ت ٣٧٨ هـ) وبُندار الفارسي[١٠٥] الذي ذهب الى أنّ القرآن معجز لأنّه معجز ولانّه كلام الله .

وأفرد الرماني والخطابي تأليفاً في اعجاز القرآن كما مرّ .

وذهب أبو هلال العسكري الى أنّ الاعجاز قائم على البلاغة ، قال : « وقد علمنا أنّ الانسان اذا غفل علم البلاغة وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه باعجاز القرآن »[١٠٦] .

* ● *

القرن الخامس الهجري

مرّ بنا أن اشهر من ألف في الاعجاز في هذا القرن هو الباقلاني في كتابه (اعجاز القرآن) وكتابيه (الانتصار والتمهيد) اللذين تطرق فيهما أيضاً الى مسألة الاعجاز .

---

(١٠٣) الفصل في الملل والنحل ١٥/١ .
(١٠٤) تاريخ فكرة اعجاز القرآن ٥٩ .
(١٠٥) البرهان في علوم القرآن ١٠٠/٣ .
(١٠٦) الصناعتين ٧ .

ومن ألّف في الاعجاز ابن سراقة (ت ٤١٠ هـ) وقد نقل السيوطي رأيه ، وكان يرى أنّ القرآن معجز بكل ما فيه .

وسبق أن ذكرنا أنّ القاضي عبدالجبار (ت ٤١٥ هـ) قد ألف كتاباً في اعجاز القرآن . وألّف في الاعجاز أيضاً الشريف المرتضى (ت ٤٣٦ هـ) وهو يرى أنّ معجزة القرآن هي بالصّرفة فقط ومعنى الصرفة عنده أنّ الله سلبهم العلوم التي يحتاج اليها في المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن[١٠٨] .

ولمكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧ هـ) كتاب اسمه (بيان اعجاز القرآن)[١٠٩] لم يصل الينا .

وتحدث ابن حزم الاندلسي (ت ٤٥٦ هـ) عن الاعجاز في كتابه (الفِصل في الملل والاهواء والنحل) وهو يرى أنّ القرآن معجزة لأنّه قرآن وهو شبيه برأي بُندار الفارسي ، ومال الى القول بالصّرفة فقال : « إنّ الله تعالى منع الخلق من مثله وكساه الاعجاز وسلبه جميع كلام الخلق » .

---

(١٠٧) الاتقان ١٤/٤ .
(١٠٨) اعجاز القرآن (الرافعي) ١٤٤ .
(١٠٩) انباه الرواة ٣١٧/٣ .

وقال ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ) بالصَّرفة(١١٠) . وهو معاصر لعبدالقاهر .

أمّا الجرجاني فهو الذي تزعم نظرية النظم كما رأينا وهو موضوع بحثنا الآتي .

* ● *

من الواضح أن عبدالقاهر قد اطلع على آراء السابقين في الاعجاز ، ففسّر فكرة الاعجاز تفسيراً يقوم على النظم والّف (الرسالة الشافية) ليثبت حقيقة الاعجاز ، والّف (دلائل الاعجاز) ليبين أسراره . وكان الغرض الديني واضحاً في (دلائل الاعجاز) إذ انّه كان مرتبطاً بالجو الديني الذي اشاعه أصحابه الاشعرية .

لقد اثبت عبدالقاهر ان الاعجاز هو عجز العرب عن معارضة القرآن ، والناظر في كتاب الله ليصل الى فهم أسراره واعجازه ينبغي أن يكون ملماً بعلوم العربية وأساليب البلغاء ولا سيما البيان والشعر ، ويرى أنّ المفسرين لابد أن يكونوا على علم بالاساليب وما وراء الالفاظ لئلا يفسدوا المعاني ويبطلوا الالفاظ ، قال : « ومن عادة قوم ممن يتعاطى التفسير بغير علم أن توهموا أبداً في الالفاظ الموضوعة

(١١٠) سر الفصاحة ٤ .

على المجاز والتمثيل أنّها على ظواهرها فيفسدوا المعنى بذلك ويبطلوا الغرض ويمنعوا انفسهم والسامع منهم العلم بموضع البلاغة وبمكان الشرف. وناهيك بهم إذا هم اخذوا في ذكر الوجوه وجعلوا يكثرون في غير طائل ، هناك ترى ما شئت من باب جهل قد فتحوه وزند ضلالة قد قدحوا به »(١١١) .

ولكي يتوصل الى توضيح هدفه في مسألة الاعجاز ردّ على كثير من الآراء والاتجاهات ، من ذلك قول بعضهم : إنّ القرآن في عصره بليغ وانّه فريد كما انّ في كل عصر نابغة(١١٢) .

ومنها قولهم : إنّه يجوز أن يقدر الواحد من الناس من بعد انقضاء زمن النبي (ص) ومضي وقت التحدي على أن يأتي بما يشبه القرآن ويكون مثله(١١٣) .

ومنها قولهم : إنّ القرآن معجز بالصَّرفة كما ذهب اليه معظم المعتزلة(١١٤) .

(١١١) دلائل الاعجاز ٢٠٨ .
(١١٢) الرسالة الشافية ١٢٨ – ١٢٩ .
(١١٣) المصدر نفسه ١٥٦ .
(١١٤) المصدر نفسه ١٤٦ .

وذهب عبدالقاهر الى إنّ الاعجاز ليس في تلاؤم الحروف لأنّه مما يستطيعه كل واحد(١١٥) .

وليس الاعجاز ناشئاً من تخير المفردات(١١٦) .

وليس الاعجاز في الاستعارة ، لأن ذلك يؤدي الى أن يكون الاعجاز في آي معدودة في مواضع من السور الطوال مخصوصة .

وليس الاعجاز في الوزن وسهولة اللفظ ، لأنّ الوزن ليس من الفصاحة والبلاغة في شيء .

لقد ربط عبدالقاهر الاعجاز بالنظم ولذلك راى أنّ القرآن الكريم معجز بنظمه اي توخي معاني النحو وأحكامه ، وقد لخص رأيه فقال في خاتمة كتابه : « ما اظن بك أيها القارىء لكتابنا إن كنت وفيته حقه من النظر ، وتدبرته حق التدبر ، إلاّ انّك قد علمت علماً أبى أن يكون للشك فيه نصيب ، وللتوقف نحوك مذهب ، أن ليس النظم شيئاً إلاّ توخي معاني النحو واحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين معاني الكلم وانك قد تبينت انّه إذا رفع معاني النحو وأحكامه مما بين الكلم حتى لا تراد فيها في جملة ولا تفصيل خرجت الكلم المنطوق ببعضها في

(١١٥) دلائل الاعجاز ٤٩ ــ ٥٠ .
(١١٦) المصدر نفسه ٥١ .

اثر بعض في البيت من الشعر والفصل من النثر من غير أن يكون لكونها في مواضعها التي وضعت فيها موجب ومقتض .

فاذا ثبت الآن ان لا شك ولا مرية في أن ليس النظم شيئاً غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين معاني الكلم ثبت من ذلك أنّ طالب دليل الاعجاز من نظم القرآن إذا هو لم يطلبه في معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه ولم يعلم أنّها معدنه ومعانه(١١٧) ، وموضعه ومكانه ، وأنّه لا مستنبط له سواها ، وأنْ لا وجه لطلبه فيما عداها ، غار نفسه بالكاذب من الطمع ، ومسلم لها الى الخدع ، وانّه إن أبى أنْ يكون فيها كان قد أبى أنْ يكون القرآن معجزاً بنظمه ، ولزمه أنْ يثبت شيئاً آخر يكون معجزاً به ، وأن يلحق بأصحاب الصَّرفة فيدفع الاعجاز من أصله . وهذا تقرير لا يدفعه إلاّ معاند يعد الرجوع عن باطل قد اعتقده عجزاً ، والثبات عليه من بعد لزوم الحجة جلداً ، ومَنْ وضع نفسه في هذه المنزلة كان قد باعدها من الانسانية »(١١٨) .

وأوضح عبدالقاهر جوانب هذا الاعجاز فقال : « أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه ، وخصائص

(١١٧) المعان ، بالمفتح : المباءة والمنزل .
(١١٨) دلائل الاعجاز ٣٤٢ .

صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادىء آيه ومقاطعها ومجاري ألفاظها ومواقعها ، وفي مضرب كل مثل ، ومساق كل خبر ، وصورة كل عظة ، وتنبيه وإعلام وتذكير ، وترغيب وترهيب ، ومع كل حجة وبرهان وصفة وتبيان ، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة ، وعشراً عشراً ، وآية آية ، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ولفظة ينكر شأنها ، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه ، أو أحرى وأخلق بل وجدوا اتساقاً بهر العقول وأعجز الجمهور ، ونظاماً والتئاماً ، وإتقاناً واحكاماً ، لم يدع في نفس بليغ منهم — ولوحكّ بيافوخه السماء — موضع طمع حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول وخلدت القروم(١١٩) فلم تملك ان تصول »(١٢٠) .

وهكذا استطاع عبدالقاهر بنظرية النظم أن يكشف عن اعجاز القرآن ويوضحه ، وهو مبتكر لهذه النظرية وإنْ كان بعض السابقين قد أشار الى أنّ القرآن معجز بنظمه وحسن تأليفه ولكنهم لم يستطيعوا أن يكشفوا وجه هذا الاعجاز كما كشفه عبدالقاهر .

(١١٩) القروم : الفحول .

(١٢٠) دلائل الاعجاز ٣٧ – ٣٨ .

النظم والنقد

اهتم عبدالقاهر بالتصوير الأدبي اهتماماً كبيراً فهو — كما مرّ بنا — لم يقف عند الالفاظ وحدها أو المعاني وحدها ، وإنّما ربط بينهما ربطاً وثيقاً وبذلك أدخل عنصراً ثالثاً في النقد الادبي وهو مراعاة الصورة الادبية التي تحدث من اجتماع اللفظ والمعنى ، فقضى على ثنائية اللفظ والمعنى كما قضى على ثنائية التعبير المزخرف والتعبير العادي ، قال الدكتور العشماوي(١٢١) :

« استطاع وهو بصدد الدفاع عن فكرة النظم أن يقضي على هذه الثنائية التي ميّزت بين التعبير المزخرف والتعبير العادي ، فأعلن أنّ القيمة في التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية ليست لها من حيث هي تشبيه أو استعارة او كناية بل هي لها من حيث قدرة الاستعارة او التشبيه على الامتزاج والانصهار بغيرها من عناصر التعبير الادبي ، وهي لها من حيث قدرتها على التفاعل مع غيرها وعلى مدى ما اكتسبته الاستعارة من خصائص يمنحها السياق نفسه » .

(١٢١) قضايا النقد الادبي والبلاغة ٣٤٢ .

واتخذ عبدالقاهر من الذوق مقياساً مهماً لادراك أسرار الجمال فمن لا ذوق له لن يدرك أسرار الجمال ، لأنّ المسألة لا تتصل بالصحة والخطأ وإنّما تتعلق بأمور هي من جنس الاحساس والشعور ، قال : « واعلم أنّه لا يصادف القول في هذا الباب موقعاً من السامع ولا يجد لديه قبولاً حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة وحتى يكون ممن تحدثه نفسه بأن لما يومىء اليه من الحسن واللطف أصلاً ، وحتى يختلف الحال عليه عند تأمل الكلام فيجد الأريحية تارة ويعرى منها أخرى وحتى إذا عجبته عجب واذا نبهته لموضع المزية انتبه . فأمّا من كانت الحالان والوجهان عنده أبداً على سواء وكان لا يتفقد من أمر النظم إلاّ الصحة المطلقة وإلاّ اعراباً ظاهراً فما أقلّ ما يجدي الكلام معه ، فليكن مَنْ هذه صفته عندك بمنزلة من عدم الاحساس بوزن الشعر والذوق الذي يقيمه به والطبع الذي يميز صحيحه من مكسوره ومزاحفه من سالمه وما خرج من البحر مما لم يخرج في أنّك لا تتصدى له ولا تتكلف تعريفه لعلمك أنّه قد عدم الأداة التي معها تعرف والحاسة التي بها تجد ، فليكن قدحك في زند وارٍ والحك في عود أنت تطمع منه في نارٍ »(١٢٢) .

(١٢٢) دلائل الاعجاز ١٩٩ .

وعقد عبدالقاهر فصلاً في دلائله(١٢٣) اوضح فيه أن العمدة في ادراك البلاغة الذوق والاحساس الروحاني ، وهو في ذلك يولي التأثير النفسي عناية كبيرة ولذلك اعتبر من النقاد الذين أشاروا الى ربط الأدب بالنفس .

ورأى في النظم أساساً للجمال في الشعر والنثر ونراه بهذا قد وضع أسس فلسفة الجمال الأدبي التي توسع فيها النقاد الغربيون ، قال الدكتور محمد غنيمي هلال ـ رحمه الله ـ بعد ان تحدث عن كروتشه : « وإنما ذكرنا من نقد بندتو كروتشه ما يتصل اتصالاً وثيقاً بنقد عبدالقاهر لنوضح فضل عبقرية عربية انتهت بعمق نظراتها في النقد الأدبي الى نتائج عالمية ذات قيمة خالدة ولها صلة بفلسفة الجمال في النقد الحديث »(١٢٤) .

وكانت النظرة العقلانية تتغلب على الجرجاني الناقد ، فهو من خلالها ينظر الى الجمال ويزن مقدار التأثير في الفن الأدبي(١٢٥) .

(١٢٣) نفسه ٣٥٢ ـ ٥٩ .

(١٢٤) النقد الادبي الحديث ٢٩٦ .

(١٢٥) تاريخ النقد الادبي عند العرب ٤٣٢ .

واهتم عبدالقاهر بتحليل النصوص واظهار ما فيها من روعة وجمال او تكلف واسفاف . وقد أعانته نظرية النظم وادراكه لما في اللغة من قدرات على أن يبدع في التحليل وأن يكون ألمع النقاد العرب في هذا المجال حتى عدّ واضع اسس المنهج التحليلي في دراسة البيان(١٢٦) .

وإذا كان كثير من النقاد يحكمون على الشاعر ببيت واحد ، فانّ عبدالقاهر كان يقصر هذا على الفحول المطبوعين ، والقاعدة الاساسية عنده في الحكم هي أنّه يجب أن ينظر الى العمل الأدبي كوحدة . وهذا دليل على أنّ النقاد العرب لم يهملوا النظرة الكلية .

ومن خلال تحليله للنصوص والتعليق عليها يتبين لنا أنّ الجرجاني لا يميل الى الغموض الذي يستهلك المعاني ، قال : « لأنّه إذا كان النظم سوياً والتأليف مستقيماً كان وصول المعنى الى قلبك تلو وصول اللفظ الى سمعك ، وإذا كان على خلاف ما ينبغي وصل اللفظ الى السمع وبقيت في المعنى تطلبه وتتعب فيه ، وإذا أفرط الأمر في ذلك صار الى التعقيد الذي قالوا إنّه يستهلك المعنى »(١٢٧) .

---

(١٢٦) عبدالقاهر الجرجاني (مطلوب) ٢٢٥ .

(١٢٧) دلائل الاعجاز ١٨٦ .

وآخر المشكلات النقدية التي بحثها عبدالقاهر هي مشكلة الأخذ والسرقة ، قال : « إنّ الحكم على الشاعر بأنّه أخذ من غيره وسرق واقتدى بمن تقدم وسبق لا يخلو من أن يكون في المعنى صريحاً أو في صيغة تتعلق بالعبارة »(١٢٨) .

ويقرر عبدالقاهر بعد ذلك أنّ علة الخلط الذي وقع فيه النقاد ، ترجع الى جهلهم ، قال : « وقد علمنا أن أصل الفساد وسبب الآفة هو ذهابهم عن أنّ من شأن المعاني أن تختلف عليها الصور ، وتحدث فيها خواص ومزايا من بعد أن لا تكون ، فانّك ترى الشاعر قد عمد الى معنى مبتذل فصنع فيه ما يصنع الصانع الحاذق إذا هو اغرب في صنعة خاتم وعمل شنف وغيرهما من أصناف الحلى ، فانّ جهلهم بذلك من حالها هو الذي أغواهم واستهواهم وورطهم فيما تورطوا فيه من الجهالات ، وأداهم الى التعلق بالمحالات ، وذلك انّهم لما جهلوا شأن الصورة وضعوا لأنفسهم أساساً وبنوا على قاعدة ، فقالوا إنّه ليس الاّ المعنى واللفظ ولا ثالث »(١٢٩) .

ولا شك أن عبدالقاهر قد وصل الى علة حقيقية في مشكلة السرقات ، لم يتبنه اليها النقاد

---

(١٢٨) أسرار البلاغة ٢٤١ .

(١٢٩) دلائل الاعجاز ٣٠٨ .

من قبل . فليس الأمر مجرد لفظ ومعنى وإنما هو صياغة وتصوير أيضاً(١٣٠) . ولهذا كان المبدأ الذي أخذ به النقاد في السرقات وهو « إنّ مَنْ أَخَذَ معنى عارياً فكساه لفظاً من عنده كان أحق به » ليس مبدأ صحيحاً طبقاً لنظرية عبدالقاهر . وقد ردّ عبدالقاهر هذا المبدأ على النقاد ، قال : « الاستعارة عندكم مقصورة على مجرد اللفظ ، ولا ترون المستعير يصنع بالمعنى شيئاً ، وترون أنّه لا يحدث فيه مزية على وجه من الوجوه ، إذا كان كذلك فمن أين — ليت شعري — يكون أحقّ به »(١٣١) .

ويجمل عبدالقاهر فكرته في حقيقة الأخذ طبقاً لنظرية النظم التي نادى بها ، فيقول : «وجملة الأمر أنّه كما لا تكون الفضة أو الذهب خاتماً أو سواراً أو غيرهما من أصناف الحلى بأنفسهما ، ولكن بما يحدث فيهما من الصورة ، كذلك لا تكون الكلم المفردة التي هي أسماء وأفعال وحروف كلاماً وشعراً من غير أنْ يحدث فيها النظم الذي حقيقته توخي معاني النحو وأحكامه . فاذن ليس لمن يتصدى لما ذكرنا من أنْ يعمد الى بيت فيضع مكان كل

(١٣٠) مشكلة السرقات في النقد العربي ١٤٠ .

(١٣١) دلائل الاعجاز ٣٠٩ .

لفظة منه لفظة في معناها إلاّ أن يسترك عقله ويستخف ويعد معدّ الذي حكى أنّه قال : إني قد قلت بيتاً هو أشعر من بيت حسان ، قال حسان(١٣٢) :

يُغْشَوْنَ حتى ما تَهِرُّ كلابُهُم
لا يسألونَ عن السوادِ المقبلِ

وقلت :

يغشون حتى ما تهرُّ كلابهم
أبداً ولا يسألونَ مَنَ ذا المقبلُ

فقيل : هو بيت حسان ولكنك قد أفسدته»(١٣٣) .

(١٣٢) ديوانه ٧٤/١ .

(١٣٣) دلائل الاعجاز ٣١٢ — ٣١٣ .

الفصل الثالث

عبدالقاهر ونظرية النظم

في دراسات المحدثين

عني بدراسة عبدالقاهر الجرجاني ونظريته في النظم كثير من المحدثين وكان لا بد لنا تتمة للبحث أن نستعرض نماذج من آراء الباحثين في فكرة النظم لأنها ظلت وستظل ميداناً فسيحاً تتصارع فيه الافكار والقرائح .

ولعل أول من تنبه الى ذلك هو الشيخ محمد عبده إذ قرأ كتابي الجرجاني دروساً في الأزهر ورآهما أولى بالدراسة من المتون وشروحها وحواشيها ، لأنهما مع عنايتهما بالتحديد والتقسيم يبنيان دراستهما على واقع النصوص الادبية ولا صلة لهما بالجدل الذي لا نتيجة له ، فضلاً عن سهولة اسلوبهما وامتلائهما بالنصوص الادبية ، مما يقرب القارىء من تذوق البلاغة .

وتناول الدكتور طه حسين عبدالقاهر بالبحث، وهو يرى أنّه قد تمّ على يده التوفيق بين البيانين العربي واليوناني ، ويضيف : أن من يقرأ « دلائل الاعجاز » لا يسعه إلاّ أن يعترف بما أنفق عبدالقاهر من جهد خصب صادق في التأليف بين قواعد النحو العربي وبين آراء ارسطو العامة في الجملة والاسلوب والفصول . ويقرر : أنه إذا كان الجاحظ هو واضع أساس البيان العربي حقاً ، فعبدالقاهر الجرجاني هو الذي رفع قواعده ، وأحكم بناءه(١) .

* ● *

وذهب الاستاذ أمين الخولي الى أنّ عبدالقاهر « متكلم فلسفي تارة ، وهو أديب صانع كلام وناقده طوراً . هو متكلم أو بليغ كلامي الدرس في كتابه (دلائل الاعجاز) يعنى أولاً وأخيراً بقضية الاعجاز فقط وينصرف اليها فيه انصرافاً تاماً ، فيجادل عنها جدلاً منطقياً بارز النزعة في اسلوبه . وعبدالقاهر بليغ اديب في كتابه الآخر (أسرار البلاغة) لا يتحدث في قضية الاعجاز بكثير ولا قليل ، بل لا يستشهد بالقرآن على نسبة كافية ، وكأنّه يتحرى ترك ذلك لما نشعر به من قلة الشواهد القرآنية في

(١) تمهيد في البيان العربي (مقدمة نقد النثر) : ٢٨ ـ ٣٠ .

كتابه هذا قلة ظاهرة ، كما يبدو اسلوبه فيه خالياً من الأسلوب المنطقي الاستدلالي ، ميالاً الى طول النفس وبسطة العبارة والاعتماد على الحاسة الفنية وتحكيم الذوق الأدبي »(٢) .

* ● *

ويرى الاستاذ ابراهيم مصطفى ان عبدالقاهر قد رسم في كتابه (دلائل الاعجاز) طريقاً جديداً للبحث النحوي تجاوز آواخر الكلم وعلامات الاعراب ، وبيّن أن للكلام نظماً وأن رعاية هذا النظم واتباع قوانينه هي السبيل الى الابانة والافهام ، وانه إذا عدل بالكلام عن سنن هذا النظم لم يكن مفهماً معناه ، ولا دالاً على ما يراد منه .

ويرى أن جمهور النحاة لم يتأثروا بأفكار عبدالقاهر ، ولم يزيدوا في أبحاثهم النحوية حرفاً ، ولا اهتدوا منه بشيء ، وآخرون منهم أخذوا الأمثلة التي ضربها عبدالقاهر بياناً لرأيه ، وتأييداً لمذهبه ، وجعلوها أصول علم من علوم البلاغة سموه (علم المعاني) وفصلوه عن النحو فصلاً أزهق روح الفكرة ، وذهب بنورها ، وقد كان أبو بكر يبدي ويعيد في أنها معاني النحو ، فسموا علمهم : (المعاني)

(٢) مناهج تجديد ١٦٢ ـ ١٦٣ .

ويتروا الاسم هذا البتر المضلل .

ويذهب الى أن الذي شغل الناس عن فهم نظم عبدالقاهر أمران : الأول : عام يتصل بحال العلم في القرن الخامس الهجري ، إذ كانت العقول قد همدت وقيدت بسلاسل من التقليد حرمت عليها أن تقبل أي ابتداع وتجديد . والثاني خاص يعود الى طبيعة المذهب ، وأن أساسه الذوق ، وتنبه الحس اللغوي لزنة الاساليب ودرك خصائصها ، وقد كانت العجمة إذ ذاك غالبة بغلبة الأعاجم ، والعلماء واقفون من علم العربية عند ظاهر لفظها ، لا يبلغ بهم الحس اللغوي أن يذوقوا ما ذاق عبدالقاهر ، ولا أن يدركوا ما ادرك .

ويرى الاستاذ ابراهيم مصطفى أن إحياء النحو يكون بابعاده عن هذا الجفاف الذي يعيش فيه ، وذلك بمزجه بالنواحي الفنية التي ذكرها عبدالقاهر في (دلائل الاعجاز) ، ويقول : ولقد آن لمذهب عبدالقاهر ان يحيا ، وأن يكون هو سبيل البحث النحوي ، فانّ من العقول ما أفاق لحظة من التفكير والتحور ، وإن الحس اللغوي أخذ ينتعش ويتذوق الاساليب ، ويزنها بقدرتها على

رسم المعاني ، والتأثر بها ، من بعد ماعاف الصناعات اللفظية وسئم زخارفها(٣) .

* ● *

والدكتور محمد مندور درس الجرجاني ونظريته في كتابيه (النقد المنهجي) و (في الميزان الجديد) وهو أول من لفت النظر الى الاسس اللغوية لمنهج الجرجاني . قال : « وفي الحق إن عبدالقاهر قد اهتدى في العلوم اللغوية كلها الى مذهب لا يمكن ان نبالغ في أهميته ، مذهب يشهد لصاحبه بعبقرية لغوية منقطعة النظير . وعلى أساس هذا المذهب كون مبادئه في إدراك دلائل الاعجاز في القرآن وفي النثر العربي والشعر العربي على السواء . مذهب عبدالقاهر هو أصح وأحدث ما وصل اليه علم اللغة في اوربا لايامنا هذه . هو مذهب العالم السويسري الثبت فردناند دي سوسير الذي توفي سنة ١٩١٣ . ونحن لا يهمنا الان من هذا المذهب الخطير إلاّ طريقة استخدامه كأس لمنهج لغوي (فيلولوجي) في نقد النصوص . لقد فطن عبدالقاهر الى أنّ اللغة ليست مجموعة من الالفاظ ، بل مجموعة من العلاقات »(٤) .

---

(٣) احياء النحو ١٦ ـ ٢٠ .

(٤) النقد المنهجي عند العرب ٣٢٦ .

وقال في موضع آخر : « منهج عبدالقاهر يستند الى نظرية في اللغة ، أرى فيها ويرى معي كل من يمعن النظر انها تماشي ما وصل اليه علم اللسان الحديث من آراء . ونقطة البدء تجدها في آخر (دلائل الاعجاز) حيث يقرر المؤلف ما يقرره علماء اليوم من أن اللغة ليست مجموعة من الالفاظ بل مجموعة من العلاقات . وعلى هذا الاساس العام بنى عبدالقاهر كل تفكيره اللغوي الفني »(٥) .

* ● *

وكتب الاستاذ محمد عبدالمنعم خفاجي كتابا عن عبدالقاهر بدأه بنقل ترجمته من الكتب القديمة ثم عقد فصلا لعبدالقاهر والكتاب المحدثين لخص فيه رأي الدكتور محمد مندور وردّ عليه(٦) . وعقد فصلا آخر عن عبدالقاهر واثره في وضع البيان العربي(٧) بيّن فيه سبب وضع علوم البلاغة وذكر بعض الكتب التي أُلفت قبل عبدالقاهر ، ثم تطرق الى موقف البلاغة العربية من التأثر بالثقافة اليونانية . ثم يتناول كتابي عبدالقاهر بالدراسة ،

---

(٥) في الميزان الجديد ١٤٧ .

(٦) عبدالقاهر والبلاغة العربية ٨ ــ ١٠ .

(٧) المصدر نفسه ١٧ ــ ٢٤ .

فيبخس عبدالقاهر حقّه حينما يرى أن عبدالقاهر « قد أساء عرض أفكاره في كتابه (الاسرار) وكذلك في (الدلائل) فخرج تأليفه مشوها مضطربا معادا مكرورا »(٨) . ويختم المؤلف كتابه بالدعوة الى العودة الى منهج عبدالقاهر .

* ● *

وكتب الدكتور مصطفى ناصف عن (النظم في دلائل الاعجاز) وهو يرى أن فكرة النظم في الدلائل ذات بذور في تفكير السلف(٩) ، ثم يشير الى أنّ كثيرين قد سبقوا عبدالقاهر الى القول بأن اعجاز القرآن لنظمه كالجاحظ والواسطي والخطابي والرماني . ونراه في فصل (النظم والاعجاز في الدلائل)(١٠) يتحدث عن مذهب الصرفة الذي لم يرتضه عبدالقاهر وعمّا افترضه عبدالقاهر من كل ما قد يتشبث به المدّعون أنه سبب الاعجاز ، وكيف كان ذلك مؤديا الى فكرة النظم عند عبدالقاهر . ويأخذ على عبدالقاهر أنّه لم يعن العناية المرجوة

---

(٨) المصدر نفسه ٤٠ .

(٩) النظم في دلائل الاعجاز ١٤ .

(١٠) المصدر نفسه ٢٣ .

بنصوص القرآن . وانّه لم يحاول البتة أن يبدي مدى تفوق القرآن على غيره من النصوص .

❋ ● ❋

وبحث الاستاذ محمد خلف الله في (المنزع النفسي في بحث أسرار البلاغة)(١١) . وهو يرى أنّ كلا من الكتابين (دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة) يقوم على نظرية يتعهدها المؤلف بالتقرير والشرح والتطبيق والاعتراض والرد ، حريصا على أن يحمل القارىء معه وعلى الا يترك جانبا من جوانب النظرية للشك والغموض . ويرى أيضا أنّ كلتا النظريتين متكاملتان وأنهما تؤلفان المحور الرئيس في الفلسفة الذوقية عند عبدالقاهر . ويرى أنّ أظهر ما يميز المؤلف فيهما منهجه الواضح القائم على الاستقراء الذوقي الشامل من جهة ، وعلى التحليل العلمي الدقيق من جهة اخرى ، حتى لتكاد بحوثه فيهما تقرب – في دقتها وتسلسل مراحلها – من اسلوب العصر الحاضر في بحوثه العلمية .

ويحلل المؤلف كتاب (أسرار البلاغة) واقفا عند النواحي النفسية من هذا الكتاب ، ثم يستخلص الفكرة الرئيسية التي تبرز في (أسرار البلاغة) والتي

(١١) من الوجهة النفسية ١٠٦ – ١٦٤ .

يصح ان نعتبرها نظريتــه في الادب ، وهـي : ان مقياس الجودة الادبية تأثير الصور البيانية في نفس متذوقها .

ويرى أن (دلائل الاعجاز) كتاب عام فـي النظرية الادبية واتصالها باعجاز القرآن ، يطـرق فيه عبدالقاهر أهم النواحي التي عرفت بعد باسم البلاغة . ويرجح أخيرا أن عبدالقاهر تأثر – علـى نحو ما – بالبحوث الاغريقية المترجمة وانتفع بهـا انتفاعا ظاهرا في دراسته لآثار البلاغة .

❋ ● ❋

والدكتور درويش الجندي ألّـف كتابا عـن نظرية النظم عند عبدالقاهر قدّم له بدراسة لبيئة عبدالقاهر وعصره وثقافته(١٢) ، ثم عرض لقضيـة الاعجاز منذ العصر الاسلامي حتى عصر عبدالقاهر(١٣) ثم شرح نظرية عبدالقاهر في النظم ، وبيّـن أنّ لها هدفين : أولهما : بيان أن جوهر الكلام هو المعنى القائم في النفس . وثانيهما : ربط البلاغة بالاعجاز .

وهذان الهدفان هما اللذان انتهيا به الى قصر حقيقة الكلام وفصاحته وبلاغته على النظم بالمفهوم

(١٢) نظرية عبدالقاهر في النظم ٣ – ١٣ .
(١٣) المصدر نفسه ١٣ – ٤٦ .

الذي حدده ، وهما اللذان رسما حدود نظريته في النظم وكيّفا أسسها ومعالمها . وفي هذا النظم وجد عبدالقاهر الأمن والطمأنينة لعقيدته وعقله ، وحاول بكل ما يستطيع من بيان ومنطق أن يقنع من خالفوه بما رآه ، إذ رأى في الخروج عنه الزيغ والضلال(١٤) .

* ● *

ويلاحظ الدكتور ابراهيم أنيس(١٥) على عبدالقاهر في علاجه لتنظيم الكلام أمورا هي :

١) ميله – على طريقة المتكلمين – الى الجدل المنطقي الفلسفي ومحاولته التقريب بين أساليب الكلام والمنطق العقلي العام ، ولذلك أكثر من التمثيل بعبارات من صنعه ، لا نكاد نرى شواهد لها فيما روي من اللغة .

٢) نرى عبدالقاهر في الكثير من مواضع الكتاب أديبا ناقدا أكثر منه لغويا ، فهو يشبّه نظم الكلام وترتيب الكلمات بنظم اللؤلؤ والجواهر في سمط نفيس ، ثم يعود ويشبهه بالاصباغ التي تعمل منها الصور والنقوش ، حين يؤلف

(١٤) المصدر نفسه ٤٧ – ٤٨ .

(١٥) من أسرار اللغة ٢٨٦ – ٢٨٧ .

منها الفنان الماهر أبدع الرسوم وأجمل المناظر أما نقده للشواهد الشعرية في كتابه فهو أشبه بنقاد زماننا حين يحاولون التعريف بنواح من الجمال في قول مأثور .

٣) كان عبدالقاهر يهدف بعلاجه لنظم الكلام الى أمور أوسع مما نهدف اليه ، ومما يهدف اليه اللغوي الاوربي حين يعالج ترتيب الكلمات في الجمل . فنرى عبدالقاهر يعقد فصلا عنوانه : (في النظم يتحد في الوضع ويدق فيه الصنع) ، عرض فيه لانواع من البديع وطرق البيان ، وبعد فيه عن النظام النحوي والتركيب اللغوي من حيث صحته أو خطؤه . فهو يتلمس في النظم نواحي من الجمال وأمورا لطيفة دقيقة .

٤) لم يفرق عبدالقاهر – كغيره من اللغويين القدماء – بين ترتيب الكلمات في الجمل النثرية وترتيبها في الابيات الشعرية .

ويرى الدكتور ابراهيم أنيس أنه يندر من قصر كتابا مستقلا أو فصولا من كتاب عن نظام الجملة العربية حتى جاء عبدالقاهر فعني بهذا الأمر كل العناية في كتابه (دلائل الاعجاز) .

* ● *

وعقد الدكتور بدوي طبانة فصلا عن (بلاغة عبدالقاهر في دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة)(١٦) ، بدأه بالموازنة بين اتجاهي عبدالقاهر ومعاصره ابن سنان الخفاجي صاحب (سر الفصاحة) ، ثم تحدث عن المعاني والبيان في كتابي عبدالقاهر ، ثم تناول فكرة النظم قائلا : « إنّ فلسفة عبدالقاهر البيانية تنهض على أساس فكرة النظم ... والواقع أنّ هذه الفكرة لم يكن عبدالقاهر مخترعا لها ، وان كان هو الذي بسط فيها القول ، وأقام على أساسها فلسفة كتابه ، فقد سبقه اليها الواسطي .. وظهرت هذه الفكرة واضحة في الصراع الذي أثاره امتزاج الثقافات وتعصب حملة اليونانية لفلسفة اليونان ومنطقهم ، ودفاع حملة العربية عن تراثهم وثقافتهم ومنها الثقافة النحوية . ومن مظاهر هذا الصراع تلك المناظرة الحادة التي قامت بين أبي سعيد السيرافي وبين أبي بشر متى بن يونس ... »(١٧) . وعقد بعد ذلك فصلا للفظ والمعنى عند عبدالقاهر ، وتحدث عن بلاغة التقديم والتأخير والذكر والحذف.

* ● *

(١٦) البيان العربي ١٦٠ — ١٩٥ .

(١٧) النقد الادبي الحديث ٢٦٨ .

ويتناول الدكتور محمد غنيمي هلال قضية اللفظ والمعنى عند عبدالقاهر ويذكر ردّه على أصحاب المعنى من سابقيه وعلى أصحاب اللفظ من سابقيه ، ثم يتحدث عن النظم عند عبدالقاهر(١٨) ويرى أنّه قام فيه بجهد عظيم الخطر ، فهو يقصد بالنظم ما يطلق عليه الغربيون علم التراكيب ، وهو عندهم أهم أجزاء النحو . ثم يتطرق الى التقويم الجمالي وصلته بالمضمون عند عبدالقاهر ويذكر نماذج من نقد (بندتوكروتشيه) وآرائه في علم الجمال ويقول : «وإنّما ذكرنا من نقد بندتوكروتشيه ما يتصل اتصالا وثيقا بنقد عبدالقاهر لتوضيح فضل عبقرية عربية انتهت بعمق نظراتها في النقد الادبي الى نتائج عالمية ذات قيمة خالدة ، ولها صلة بفلسفة الجمال في النقد الحديث »(١٩) .

* ● *

وألّف الدكتور أحمد أحمد بدوي كتابا عن (عبدالقاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية) تحدث فيه عن حياة عبدالقاهر وآثاره وشعره(٢٠)

(١٨) المصدر نفسه ٢٧٦ .

(١٩) المصدر نفسه ٢٩١ .

(٢٠) عبدالقاهر الجرجاني ٥ — ٧٧ .

وفصّل القول في نظرية النظم(٢١) ، ثم تحدث عن اعجاز القرآن قبل عبدالقاهر(٢٢) ، وعبدالقاهر بين معاصريه : ابن رشيق القيرواني وابن سنان الخفاجي وختم الكتاب بالحديث عن عبدالقاهر في عصرنا الحديث .

* ● *

وتناول الدكتور شوقي ضيف عبدالقاهر الجرجاني في كتابه : (البلاغة تطور وتاريخ) فتحدث عن وضع عبدالقاهر لنظرية المعاني(٢٣) ووضعه لنظرية البيان(٢٤) ، قال : « ولعبدالقاهر مكانة كبيرة في تاريخ البلاغة ، اذ استطاع أن يضع نظريتي علمي المعاني والبيان وضعا دقيقا ، أما النظرية الاولى فخصّ بعرضها وتفصيلها كتابه (دلائل الاعجاز) ، وأما النظرية الثانية فخص بها وبمباحثها كتابه (أسرار البلاغة) » .

وقد سبق ذكر آراء الدكتور شوقي ضيف في ثنايا البحث .

* ● *

---

(٢١) المصدر نفسه ١٠١ .
(٢٢) المصدر نفسه ٣٢٣ .
(٢٣) البلاغة تطور وتاريخ ١٦٠ ــ ١٨٩ .
(٢٤) المصدر نفسه ١٩٠ ــ ٢١٩ .

وتحدث الدكتور فتحي أحمد عامر عن (فكرة النظم بين وجوه الاعجاز في القرآن الكريم) فبدأ ببحث فكرة الاعجاز بين القدماء والمحدثين ثم عقد فصلا للنظم وأكد مرارا على أنّ عبدالقاهر هو أكبر مفلسفي هذه الفكرة وافرد فصلا بهذا العنوان(٢٥) اعتمد في جله على كتاب الدكتور شوقي ضيف السابق . ثم نراه في الباب الثاني(٢٦) من الكتاب يطبق فكرة النظم على القرآن الكريم .

* ● *

وعقد الدكتور احسان عباس فصلا من كتابه القيّم (تاريخ النقد الادبي عند العرب)(٢٧) تحدث فيه عن النقد وفكرة الاعجاز عند عبدالقاهر واللفظ والمعنى في ضوء نظرية النظم ، وذهب الى أنّ عبدالقاهر ألّف دلائل الاعجاز أولا ثم أتبعه بأسرار البلاغة ، قال : « ... ومن مرحلة (المعنى) يتكون (علم المعاني) ومن مرحلة (معنى المعنى) يجيء (علم البيان) ولهذا نستطيع أن نقول إنّ عبدالقاهر بعد أن انتهى من كتابه دلائل الاعجاز الذي تحدث فيه حول المعنى ، حاول أن يخصص كتاباً لدراسة

---

(٢٥) فكرة النظم بين وجوه الاعجاز ٧١ ــ ١٢٦ .
(٢٦) المصدر نفسه ١٢٧ ــ ٢٦٤ .
(٢٧) الصفحات ٤١٩ ــ ٤٣٨ .

(معنى المعنى) فكـــان من ذلك كتابـــه أسرار البلاغة »(٢٨) .

* ● *

وتحدث سيد قطب عن نظرية النظم في كتابه (النقد الادبي) ونقد عبدالقاهر لأنّه اهمل دراسة الجانب الصوتي من اللفظ ولم يعط الالفاظ قيمة كبيرة ، قال : « ومع أننا نختلف مع عبدالقاهر في كثير مما تحويه نظريته هذه بسبب إغفاله التام لقيمة اللفظ الصوتية مفردا أو مجتمعا مع غيره ، وهو ما عبرنا عنه بالايقاع الموسيقي كما يغفل الظلال الخيالية في أحيان كثيرة ، ولها عندنا قيمة كبرى في العمل الفني . مع هذا فاننا نعجب باستطاعته أن يقرر نظرية هامة كهذه ـ عليها الطابع العلمي ـ دون أن يخل ذلك بنفاذ حسه الفني في كثير من مواضع الكتاب »(٢٩) .

* ● *

وممن أخذ عليه اهماله دراسة الجانب الصوتي أيضا الدكتور محمد زكي العشماوي في كتابه (قضايا النقد الادبي والبلاغة) ، قال : « ولكن الذي نؤاخذ

(٢٨) ص ٤٢٩ .
(٢٩) النقد الادبي ١٣٧ .

عليه عبدالقاهر انّه في بحثه هذا الطويل والذي يرتبط ارتباطا وثيقا باللغة ومكوناتها الشعورية والمعنوية لم يفسح المجال لدراسة الجانب الصوتي في اللغة ودلالته على المعنى بشكل ايجابي ، فليس من شك في أنّ جانبا هاما من التجربة في الشعر مصدره الصوت والنغم »(٣٠) .

* ● *

وكتب الاستاذ عبدالقادر المهيري بحثا رصينا في حوليات الجامعة التونسية بعنوان (مساهمة في التعريف باراء عبدالقاهر الجرجاني في اللغة والبلاغة)(٣١) انتهى فيه الى أن عبدالقاهر « رأى في النظم أساس الاعجاز ومحط البلاغة ، ورفض أن يكون مجرد ترديد هذا المصطلح كافيا للاقناع به ، أخذ كلمة النظم عن سلفه ، وضمّنها مفهوما يمدّ الدارس بوسائل عملية للبحث والتقييم . ولقد تسنى له ذلك لأنه ميّز بين اللغة والكلام ، بين ما تشترك فيه المجموعة وما يختص به الفرد ، بين ما يمكن أن يضبط وتستقصى وسائله وما هو خلق مستمر وابتكار متواصل ، فعوض مبدأ بلاغة العبارة الذي يوهم بأن وسائل حسن الكلام يمكن أن تحصى

(٣٠) قضايا النقد الادبي والبلاغة ٣٣٣ .
(٣١) العدد ١١ ص ص ٨٣ ـ ١٢٤ .

بمبدأ بلاغة السياق الذي يفتح المجال واسعا للاختراع والابداع ، فكان صاحب منهج بينما اكتفى غيره بتفكيك الكلام وافراد بعض جوانبه بالعناية » .

●

وتطرق الدكتور تمام حسان في كتابه (اللغة العربية معناها ومبناها) الى نظرية النظم ، قال : « ولقد كانت مبادرة العلامة عبدالقاهر رحمه الله بدراسة النظم وما يتصل به من بناء وترتيب وتعليق من أكبر الجهود التي بذلتها الثقافة العربية قيمة في سبيل ايضاح المعنى الوظيفي في السياق او التركيب. ومع قطع النظر عن رأيي الشخصي في قيمة البلاغة العربية بعامة من حيث كونها منهجا من مناهج النقد الادبي وعن صلاحيتها أو عدم صلاحيتها في هذا المجال أجدني مدفوعا الى المبادرة بتأكيد أنّ دراسة عبدالقاهر للنظم وما يتصل به تقف بكبرياء كتفا الى كتف مع أحدث النظريات اللغوية في الغرب وتفوق معظمها في مجال فهم طرق التركيب اللغوي ، هذا مع الفارق الزمني الواسع الذي كان ينبغي ان يكون ميزة للجهود المحدثة على جهد عبدالقاهر »(٣٢) .

●

---

(٣٢) اللغة العربية معناها ومبناها ١٨ ـ ١٩ .

وآخر ما وقفت عليه مما أفرد لعبدالقاهر هو كتاب الدكتور احمد مطلوب الموسوم (عبدالقاهر الجرجاني بلاغته ونقده) وقد خصص الفصل الاول لترجمة المؤلف واستعراض مؤلفاته مع التعريف بمحتواها والاشارة الى المصادر القديمة التي ذكرتها. وكان الفصل الثاني لنظرية النظم وقد اكثر فيه من الاستشهاد بأقوال عبدالقاهر ، وكان استخراج النصوص من مظانها وترتيبها حسب المعاني فضلا كبيرا من المؤلف .

وبعد هذا الفصل تأتي فصول ذات صبغة بلاغية وأدبية ترتبط بنظرية النظم . ويرى الدكتور أحمد مطلوب أنّ معظم ما بحثه عبدالقاهر في كتابيه من الموضوعات التي تحدث عنها السابقون ، ولكن ميزته أنه استطاع أن يجمع شتاتها ويوحد بينها في اطار نظريته وأن يضع الحدود والرسوم الواضحة والتقسيمات القائمة على استقراء النصوص(٣٣) .

وبعد فلعلي قد ألقيت الضوء على نظرية النظم وتطورها على يد عبدالقاهر وبذلك أكون قد شاركت ببحث متواضع لم يبلغ الكمال بالتأكيد لأنّ ذلك لا سبيل اليه لبشر ، والحمدلله أولا وآخرا .

●

---

(٣٣) عبدالقاهر الجرجاني ٣٢٣ .

فهرس المصادر والمراجع

١ ـ الاتقان في علوم القرآن : السيوطي ، جلال الدين ، ت ٩١١ هـ ، تحـ أبي الفضل ، مصر ١٩٦٧ .

٢ ـ أثر النحاة في البحث البلاغي : د . عبدالقادر حسين ، القاهرة ١٩٧٥ .

٣ ـ احياء النحو : ابراهيم مصطفى ، القاهرة ١٩٥٩ .

٤ ـ الادب الصغير : ابن المقفع ، عبدالله ، ت ١٤٢ هـ ، تحـ أحمد زكي ، مصر ١٩١١ .

٥ ـ أساس البلاغة : الزمخشري ، محمود بن عمر ، ت ٥٣٨ هـ ، القاهرة ١٩٥٣ .

٦ ـ الاشتقاق : ابن دريد ، ابو بكر محمد بن الحسن ، ت ٣٢١ هـ ، تحـ عبدالسلام هارون مصر ١٩٥٨ .

٧ ـ اعجاز القرآن : الباقلاني ، ابو بكر محمد بن

الطيب ، ت ٤٠٣ هـ ، تحـ أحمد صقر ، دار المعارف بمصر ١٩٦٤ .

٨ ـ اعجاز القرآن : مصطفى صادق الرافعي ، مصر .

٩ ـ اعجاز القرآن : القاضي عبدالجبار ، ت ٤١٥ هـ ، تحـ أمين الخولي ، القاهرة ١٩٦٠ .
(وهو الجزء السادس عشر من كتاب : المغني في أبواب التوحيد والعدل) .

١٠ـ الامتاع والمؤانسة : ابو حيان التوحيدي ، علي بن محمد ، ت ٤١٤ هـ ، تحـ أحمد أمين وأحمد الزين ، القاهرة ١٩٥٢ .

١١ـ إنباه الرواة على أنباه النحاة : القفطي ، علي ابن يوسف ، ت ٦٤٦ هـ ، تحـ أبي الفضل ، مصر ١٩٥٥ .

١٢ـ الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد : ابن الخياط المعتزلي ، ت ٣٠٠ هـ ، بيروت ١٩٥٧ .

١٣ـ البرهان في علوم القرآن : الزركشي ، بدرالدين محمد بن عبدالله ، ت ٧٩٤ هـ ، تحـ أبي الفضل ، البابي الحلبي بمصر ١٩٥٧ ـ ٥٨ .

١٤- البصائر والذخائر : أبو حيان التوحيدي ، تحـ د . ابراهيم الكيلاني ، دمشق .
١٥- البلاغة : المبرد ، محمد بن يزيد ، ت ٢٨٦ هـ ، تحـ د . رمضان عبدالتواب ، القاهرة ١٩٦٥ .
١٦- البلاغة تطور وتاريخ : د . شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ١٩٦٥ .
١٧- بيان اعجاز القرآن : الخطابي ، حمد بن محمد ت ٣٨٨ هـ تحـ محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر ١٩٦٨ . في (ثلاث رسائل في اعجاز القرآن) .
١٨- البيان العربي : د . بدوي طبانة ، القاهرة ١٩٦٢ .
١٩- البيان والتبيين : الجاحظ ، عمرو بن بحر ، ت ٢٥٥ هـ ، تحـ عبدالسلام هارون ، القاهرة ١٩٤٨ .
٢٠- تاج العروس : الزبيدي ، محمد مرتضى ، ت ١٢٠٥ هـ ، المطبعة الخيرية بمصر ١٣٠٦ هـ .
٢١- تاريخ بغداد : الخطيب البغدادي ، أحمد بن علي،ت ٤٦٣ هـ ، مط السعادة بمصر ١٩٣١ .
٢٢- تاريخ جرجان : السهمي ، حمزة بن يوسف، ت ٤٢٧ هـ ، حيدرآباد ـ الهند ، ١٩٦٧ .

٢٣- تاريخ فكرة اعجاز القرآن : نعيم الحمصي ، دمشق ١٩٥٥ .
٢٤- تاريخ النقد الادبي عند العرب : د . احسان عباس ، بيروت ١٩٧١ .
٢٥- تأويل مشكل القرآن : ابن قتيبة ، عبدالله ، ت ٢٧٦ هـ ، تحـ أحمد صقر ، القاهرة ١٩٧٣ .
٢٦- التعريفات : الشريف الجرجاني ، على بن محمد ، ت ٨١٦ هـ ، البابي الحلبي بمصر ١٩٣٨ .
٢٧- تفسير الطبري : محمد بن جرير الطبري ، ت ٣١٠ هـ ، البابي الحلبي بمصر ١٩٥٤ .
٢٨- التمهيد : الباقلاني ، تحـ مكارثي ، بيروت ١٩٥٧ .
٢٩- حجج النبوة : الجاحظ ، (رسائل الجاحظ للسندوبي) ، مصر ١٩٣٣ .
٣٠- الحيوان : الجاحظ ، تحـ عبدالسلام هارون ، القاهرة ١٩٣٨ .
٣١- خزانة الادب : البغدادي ، عبدالقادر بن عمر ، ت ١٠٩٣ هـ ، بولاق ١٢٩٩ هـ .

٣٢- الخطابة : ارسطو ، ترجمة د . عبدالرحمن بدوي ، القاهرة ١٩٥٩ .

٣٣- دلائل الاعجاز : عبدالقاهر الجرجاني ، طبعة احمد مصطفى المراغي ، مصر .

٣٤- ديوان البحتري : تحـ حسن كامل الصيرفي ، دار المعارف بمصر .

٣٥- ديوان بشار : تحـ محمد الطاهر بن عاشور ، القاهرة ١٩٥٠ .

٣٦- ديوان أبي تمام بشرح التبريزي : تحـ محمد عبده عزام ، دار المعارف بمصر .

٣٧- ديوان حسان بن ثابت : تحـ د. وليد عرفات ، دار صادر ـ بيروت ١٩٦٤ .

٣٨- ديوان العباس بن الاحنف : د . عاتكة الخزرجي ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٥٤ .

٣٩- ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات : تحـ محمد يوسف نجم ، بيروت ١٩٥٨ .

٤٠- ديوان ابن هرمة : تحـ محمد جبار المعيبد ، مط الاداب ، النجف ١٩٦٩ .

٤١- الرسالة الشافية : عبدالقاهر الجرناجي (في ثلاث رسائل في اعجاز القرآن) .

٤٢- الرسالة العذراء : ابن المدبر ، ابراهيم ، ت ٢٧٩ هـ ، تحـ د . زكي مبارك ، مط دار الكتب المصرية .

٤٣- سر الفصاحة : ابن سنان الخفاجي ، عبدالله بن محمد ، ت ٤٦٦ هـ ، تحـ عبدالمتعال الصعيدي ، مصر ١٩٥٢ .

٤٤- سيبويه امام النحاة : علي النجدي ناصف ، مط لجنة البيان العربي ، القاهرة .

٤٥- شعر عبدالله بن الزبير الاسدي : د . يحيى الجبوري ، بغداد ١٩٧٤ .

٤٦- الشعر والشعراء : ابن قتيبة ، تحـ أحمد محمد شاكر ، دار المعارف بمصر ١٩٦٦ .

٤٧- شعر يزيد بن الطثرية : حاتم صالح الضامن ، مط أسعد ، بغداد ١٩٧٣ .

٤٨- الصناعتين : أبو هلال العسكري ، الحسن ابن عبدالله ، ت ٣٩٥ هـ ، تحـ أبي الفضل والبجاوي ، البابي الحلبي بمصر ١٩٧١ .

٤٩ــ طبقات المفسرين : الداودي ، محمد بن علي ، ت ٩٤٥ هـ ، تحـ علي محمد عمر ، القاهرة ١٩٧٢ .

٥٠ــ عبدالقاهر بلاغته ونقده : د . أحمد مطلوب ، بيروت ١٩٧٣ .

٥١ــ عبدالقاهر والبلاغة العربية : محمد عبدالمنعم خفاجي ، القاهرة ١٩٥٢ .

٥٢ــ عبدالقاهر وجهوده في البلاغة العربية : د . أحمد أحمد بدوي ، مصر .

٥٣ــ الفرق بين الفرق : البغدادي ، عبدالقاهر بن طاهر ، ت ٤٢٩ هـ ، تحـ محمد محيى الدين عبدالحميد ، مط المدني ، القاهرة .

٥٤ــ الفصل في الملل والاهواء والنحل : ابن حزم الاندلسي ، علي بن أحمد ، ت ٤٥٦ هـ ، مصر ١٩٦٤ .

٥٥ــ فكرة النظم بين وجوه الاعجاز في القرآن الكريم : د . فتحي أحمد عامر ، القاهرة ١٩٧٥ .

٥٦ــ فن الشعر : ارسطو ، ترجمة د . عبدالرحمن بدوي ، القاهرة ١٩٥٣ .

٥٧ــ الفهرست : ابن النديم ، محمد بن اسحاق ، ت ٣٨٠ هـ ، مط الاستقامة ، القاهرة .

٥٨ــ فهرسة ما رواه عن شيوخه : ابن خير الاشبيلي ، أبو بكر محمد ، ت ٥٧٥ هـ ، بيروت ١٩٦٢ .

٥٩ــ في الميزان الجديد : د . محمد مندور ، مصر .

٦٠ــ الكتاب : سيبويه ، عمرو بن عثمان ، ت ١٨٠ هـ ، بولاق ١٣١٦ ــ ١٧ .

٦١ــ اللباب في تهذيب الانساب : ابن الاثير ، عزالدين ، ت ٦٣٠ هـ ، مصر ١٣٥٦ هـ .

٦٢ــ لسان العرب : ابن منظور ، محمد بن مكرم ، ت ٧١١ هـ ، بيروت ١٩٦٨ .

٦٣ــ اللغة العربية معناها ومبناها : د . تمام حسان ، القاهرة ١٩٧٣ .

٦٤ــ المدخل الى دراسة البلاغة العربية : د . أحمد خليل ، بيروت ١٩٦٨ .

٦٥ــ مشكلة السرقات في النقد العربي : محمد مصطفى هدارة ، مصر ١٩٥٨ .

٦٦ـ مصطلحات بلاغية : د . احمد مطلوب ، بغداد ١٩٧٢ .

٦٧ـ المصون في الادب : أبو احمد العسكري ، الحسن بن عبدالله ، ت ٣٨٢ هـ ، تحـ عبدالسلام هارون ، الكويت ١٩٦٠ .

٦٨ـ المعجم الوسيط : دار المعارف بمصر ١٩٧٣ .

٦٩ـ المقابسات : أبو حيان التوحيدي ، مصر ١٩٢٩ .

٧٠ـ مقالات الاسلاميين : الاشعري ، أبو الحسن علي بن اسماعيل ، ت ٣٣٠ هـ ، تحـ محمد محيى الدين عبدالحميد ، مصر ١٩٥٠ .

٧١ـ الملل والنحل : الشهرستاني ، محمد بن عبدالكريم ، ت ٥٤٨ هـ ، تحـ عبدالعزيز محمد الوكيل ، مصر ١٩٦٨ .

٧٢ـ من اسرار اللغة العربية : د . ابراهيم انيس ، القاهرة ١٩٦٦ .

٧٣ـ من الوجهة النفسية : محمد خلف الله ، القاهرة ١٩٧٠ .

٧٤ـ مناهج تجديد : أمين الخولي ، القاهرة ١٩٦١ .

٧٥ـ نظرية عبدالقاهر في النظم : د . درويش الجندي ، مصر ١٩٦٠ .

٧٦ـ النظم في دلائل الاعجاز : د . مصطفى ناصف، حوليات كلية الاداب (جامعة عين شمس) ١٩٥٥ .

٧٧ـ النقد الادبي ، أصوله ومناهجه : سيد قطب ، دار الفكر العربي بمصر ١٩٤٧ .

٧٨ـ النقد الادبي الحديث : د . محمد غنيمي هلال ، مصر ١٩٧٣ .

٧٩ـ النقد المنهجي عند العرب : د . محمد مندور، مصر .

٨٠ـ نكت الانتصار لنقل القرآن : الباقلاني ، تحـ د . محمد زغلول سلام ، الاسكندرية ١٩٧١ .

٨١ـ النكت في اعجاز القرآن : الرماني ، علي بن عيسى ، ت ٣٨٦ هـ ، في (ثلاث رسائل في اعجاز القرآن) .

الفهـــرس

صدر من الموسوعة الصغيرة

١ ـ العرب والحضاة الاوربية ، د . فيصل السامر .

٢ ـ فلسفة الفيزياء ، د . محمد عبداللطيف مطلب .

٣ ـ الحقيقة الاشتراكية لحزب البعث العربي الاشتراكي عزيز السيد جاسم .

٤ ـ قضايا المسرح المعاصر ، سامي خشبة .

٥ ـ الصناعات البتروكيمياوية ومستقبل النفط العربي . محمد ازهر السماك .

٦ ـ الثورة والديمقراطية ، صباح سلمان .

٧ ـ دانتي ومصادره العربية والاسلامية ، عبدالمطلب صالح.

٨ ـ الطب عند العرب ، د . عبداللطيف البدري .

٩ ـ انغولا .. الثورة وابعادها الافريقية ، حلمي شعراوي.

١٠ ـ معالجات تخطيطية لظاهرة التحول الحضري، د. حيدر كمونة .

١١ ـ مصادر الطاقة ، د . سلمان رشيد سلمان .

١٢ ـ التراث كمصدر في نظرية المعرفة والابداع في الشعر العربي الحديث ، طراد الكبيسي .

١٣ ـ التقدم العلمي والتكنولوجي ومضامينه الاجتماعية ، د . نوري جعفر .

١٤ ـ الثقافة والتنظيمات الشعبية ، عبدالغني عبدالغفور .
١٥ ـ العوامل المحفزة لنمو الدخل القومي، د. كاظم حبيب.
١٦ ـ فن كتابة الاقصوصة ترجمة : كاظم سعد الدين .
١٧ ـ الاعلام والاعلام المضاد ، صاحب حسين .
١٨ ـ استثمار المواد الكيمياوية والعضوية الملوثة للبيئة ، طارق شكر محمود .
١٩ ـ مساهمة العرب في دراسة اللغات السامية ، د هاشم الطعان .
٢٠ ـ الانسان اخر المعلومات العلمية عنه ، ترجمة : كاميران قرهداغي .
٢١ ـ الشعر في المدارس ترجمة : ياسين طه حافظ .
٢٢ ـ من عصر البخار الى عصر الليزر ، د . اسامة نعمان .
٢٣ ـ الاتصال والتغير الثقافي ، هادي نعمان الهيتي .
٢٤ ـ المدخل الى الفكر الفلسفي عند العرب ، د . جعفر آل ياسين .
٢٥ ـ الصهيونية ليست حركة قومية ، بديعة امين .
٢٦ ـ الدفاع المدني الشعبي ، صالح مهدي عماش .
٢٧ ـ النسبية من نيوتن الى انشتاين، د. طالب ناهي الخفاجي
٢٨ ـ فن التمثيل عند العرب ، د . محمد حسين الاعرجي .
٢٩ ـ الموسيقى الالكترونية ، د . علي الشوك .
٣٠ ـ دراسة في التخطيط الاقتصادي، د . يحيى غني النجار
٣١ ـ الرواية العربية والحضارة الاوربية ، شجاع مسلم العاني .

٣٢ ـ نقد الفكر البرجوازي المعاصر ، ترجمة : يوسف عبد المسيح ثروة .
٣٣ ـ الطاقة وآفاقها المستقبلية ، د . عادل كمال جميل .
٣٤ ـ فن الترجمة ، ترجمة د . حياة شرارة .
٣٥ ـ صورة الكون ، د . محمد عبداللطيف مطلب .
٣٦ ـ مدارس النقد الادبي الفرنسي المعاصر ، نهاد التكرلي.
٣٧ ـ النهضة ، د . كمال مظهر احمد .
٣٨ ـ الحرب النفسية ، د . فخري الدباغ .
٣٩ ـ الانسان والبيئة ، ترجمة عصام عبداللطيف احمد .
٤٠ ـ في علم التراث الشعبي ، لطفي الخوري .
٤١ ـ مساهمة العرب في علوم الحياة ، عادل محمد حسين الشيخ علي .
٤٢ ـ العنصرية الصهيونية ، د . عبدالوهاب المسيري .
٤٣ـ المصادر الاساسية لتجربة الفنان التشكيلي المعاصر في العراق ، عادل كامل .
٤٤ـ سيكولوجية الطفل في مرحلة الروضة مدحت عبدالرزاق عبدالنبي .
٤٥ـ لمحات موجزة من تاريخ نضال الشعب العراقي صادق حسن السوداني .
٤٦ـ التكنولوجيا المعاصرة د . طه تايه ذياب و د . سامي مظلوم صالح .

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد
١٣٠٩ لسنة ١٩٧٩

دار الحرية للطباعة بغداد ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م

المَوسُوعة الصغيرة

سلسلة ثقافية نصف شهرية تتناول
مختلف العلوم والفنون والاداب

رئيس التحرير : موسى كريدي

الكتاب القادم :

الطفل
هذا الكائن العجيب

د . ضياء الدين ابو الحب

السعر ٥٠ فلسا

دار الحرية للطباعة - بغداد

مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

خدمة متميزة ... وعطاء مستمر

النهاية